بحث محكم

إشكاليّة مفهوم التوراة في الدراسات الإسلامية ودورها في نشأة الإسرائيليّات المبكّرة

محمّد حسن بدر الدين

باحث تونسي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
مؤسسة دراسات وأبحاث

قسم الدراسات الدينية

جميع الحقوق محفوظة © 2015
مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث
All rights reserved © 2015
Mominoun Without Borders

ملخّص البحث:

يهدف هذا البحث إلى بيان أنّ منهج التثبّت والتحرّي، الذي اعتمده المسلمون الأوائل في بعض نواحي البحث عن أحوال الناقلين للأخبار، لم يُطبّق مع الإسرائيليّات. ومن أهمّ أسباب هذا التوجّه الثّقة الكبيرة في مرويّات من أسلم من أهل الكتاب، أمثال: كعب الأحبار، وتميم الداري، ونوف البكالي، ووهب بن منبه، وابن جريج، وقد تكفّل البحث التعريفَ بهم، وتقديم لمحة عن مرويّاتهم وأثرها في تغلغل الإسرائيليات في كتب التاريخ، والسيرة، والتفسير، والحديث.

وبسبب الأميّة، وقلّة المصادر، استعان المسلمون بمرويّات أهل الكتاب في علوم التفسير والحديث، لدعم حركة التدوين الأولى التّي هدفت إلى حفظ التراث الديني والأدبي وتوثيقه.

واختار البحث موضوع التوراة، باعتباره من المصطلحات الملتبسة في الفكر الإسلامي، وتوقّف عند مواقف المسلمين منها، وبيان مظاهر الاضطراب في فهمها وتمثّلها، من خلال أقوال المؤرّخين، والمحدّثين، والمفسّرين، الذين ظنّوا أنّها ألواح موسى المذكورة في القرآن. فلم يتعرّضوا لها بالنقد إلّا في عصور متأخّرة، ونظروا إليها نظرة إجلال واحترام، ولم يتفطّنوا إلى أنّ توراة موسى تعرّضت للضياع، ثمّ تحوّلت إلى روايات شفهية من بعد عصر موسى إلى ما يقرب من منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، حيث تمّ التدوين النّهائي لنصوص التوراة على يدي (عزرا)، على الرغم من أنّها ظلّت كتاباً مفتوحاً للإضافة والتعديل.

لم نجد دراسة سابقة عن موقف المسلمين الأوائل من التوراة على حدٍّ علمنا، فشجّعنا ذلك على تقديم قراءة تاريخية ونقدية للموضوع. وقد عرضنا نماذج من (الاسكاتولوجيا) الإسلامية، أو علم النهايات، التي تأثّرت بالمرويّات التّوراتية، واخترنا روايات نسطور، وبحيرا الراهب، وما تعلّق بها من مباحث، مثل الغمامة، والبشارة، والتحذير، باعتبارها صوراً تطبيقيّة عن نشأة الإسرائيليّات المبكّرة.

التعريف بالبحث:

حصل إشكال حقيقيّ لدى المسلمين الأوائل حول مصطلح التّوراة، فعند أغلبهم هي الّتي وردت في القرآن. بينما هي عند اليهود الربيّين مجموعة من الأسفار لا علاقة لها بتوراة موسى. وقد ظهرت ملامح هذا الإشكال، في تراثنا، في كتب التفسير، والحديث، والتاريخ، والسير، وغيرها من حقول المعارف الإسلامية. وظلّ المفهوم غامضاً في الفهم والتداول. ثمّ لحقت به مع مرور السنين أفهام، وتعريفات، وتصوّرات، متداخلة وخيالية.

وإذا استثنينا أصحاب الاختصاص من كتّاب المقالات، الّذين اهتمّوا بالعقائد، والملل، والنحل، مثل البغدادي (ت 429ه)، وابن حزم (ت 548ه)، والشهرستاني (ت 548ه)، وجدنا تعريفات متباينة ومتضاربة عرضنا لها بالتحليل والتمحيص، ثمّ تتبّعنا أثر ذلك الفهم في انتشار القصّ والإسرائيليّات، على مستوى الفكر الإسلامي، ووقفنا على بعض النماذج المشهورة لنبيّن تداخل الأثر اليهودي والمسيحي، لاسيما بعد فتح الأمصار، واخترنا موضوع البشارة نموذجاً تطبيقياً، باعتبارها من أهمّ مباحث الجدل الدّيني التي حركت الأفكار.

الفكر الإسلامي في تقصّياته عن التّوراة:

عن ابن عبّاس قال: «التّوراة كلّها في خمس عشرة آية من سورة بني إسرائيل». وفي رواية أخرى عنه: «ثماني عشرةَ آية منها كانت في ألواح موسى»؛ أي من قوله تعالى: [لا تَجْعَل مَعَ اللّهِ إِلَـهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَّخْذُولاً] [الإسراء: 22] إلى قوله: [وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَّدْحُوراً] [الإسراء: 39][1].

يوضّح محمد الطّاهر بن عاشور (1296-1393هـ/1879-1973م) صاحب **(التّحرير والتنوير)** هذا الإشكال التمجيدي الوارد في نصّ ابن عبّاس، فيقول: «إنّه يعني بالتوراة الألواح المشتملة على الوصايا العشر، وليس مراده أنّ القرآن حكى ما في التوراة، ولكنّها أحكام قرآنية موافقة لما في التّوراة»[2].

[1] المراغي (ت 1371هـ)، التفسير، مطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده، الطبعة الأولى، مصر 1365هـ - 1946م، (3/15).

[2] محمد الطاهر بن عاشور (ت 1393هـ)، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م هـ، عدد الأجزاء 30، ج 15، ص 8. وانظر أيضاً: جلال الدين السيوطي، الدر المنثور، دار الفكر، بيروت، 1993م، 242/5

ولكنّ هذا التّحديد مستمدّ، أيضاً، من الكتاب المقدّس لفظيّاً، وبالتحديد من سفر الخروج، حيث الإشارة إلى موضوع العبور، وتلقّي الوصايا: «وعبر بَنُو إسرائيل البحر الأحمر، وبلغوا جبل سيناء، حيث أعطاهم الربّ الوصايا العشر»[3].

وفي رواية أخرى في سُنَنُ أبي دَاوود، عن ابن عبّاس، أيضاً، قال: «أوتي رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- سبعاً من المثاني الطوال، وأوتي موسى -عليه السلام- ستّاً، فلمّا ألقى الألواح رفعت ثنتان، وبقي أربع»[4].

من المرجّح أن الرواية رُفعت إلى ابن عبّاس لزيادة الصدقية، فالألواح، هنا، ستّ (06)، ولم يبقَ منها إلاّ أربع (04). هذا تأويل بعيد، إن صحّ عن ابن عبّاس أصلاً.

ولا ندري لماذا رُفعت اثنتان فقط، وبقي أربع؛ إذ المشهور أنّ التوراة نزلت في لوحين، حسب ما ذكر ذلك القرطبي: «يُروى أنّها لوحان، وجاء بالجمع؛ لأنّ الاثنين جمع»[5].

ويذهب الإيجي (ت 905ه)، في تفسيره المسمّى **(جامع البيان في تفسير القرآن)**، إلى الرأي نفسه، حيث يقول: «أوتي النبيّ -عليه الصلاة والسلام- السبع الطوال، وأُعطي موسى ستّاً، فلمّا ألقى الألواح رُفعت اثنتان، وبقي أربع»[6].

وفي الرواية السابقة للقرطبي، نجد عناية بالكميّة هذه المرّة. فعن ربيع بن أنس: «نزلت التوراة وهي سبعون وقر بعير»![7].

---

[3] سفر الخروج، (20، 1-17).

[4] سُنَنُ أبي دَاوود، أصلها: «1459، حدثنا عثمان بن أبي شيبة [...] عن سعيد بن جبير عن ابن عباس»، سنن أبي داوود للحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني (202- 275 ه)، تحقيق عادل السيد، دار ابن حزم، بيروت، طبعة أولى، 1418هـ/ 1997م، جزء 2، ص 102

[5] أبو عبد الله محمد القرطبي (المتوفى 671هـ)، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، 1423هـ/ 2003م. قال ذلك في معرض تفسيره للآية الكريمة: [وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ] [سورة الأعراف، الجزء السابع، صفحة 281]، قوله تعالى: [وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ] **يريد التوراة**. وروي في الخبر أنّه قبض عليه جبريل -عليه السلام- بجناحه، فمرّ به في العلا حتى أدناه، حتى سمع صريف القلم حين كتب الله له الألواح؛ ذكره الترمذي الحكيم. وقال مجاهد: كانت الألواح من زمردة خضراء. ابن جبير: من ياقوتة حمراء. أبو العالية: من زبرجد. الحسن: من خشب؛ نزلت من السماء. وقيل: من صخرة صمّاء، لينها الله لموسى -عليه السلام- فقطعها بيده، ثمّ شقّها بأصابعه؛ فأطاعته كالحديد لداود. قال مقاتل: أي كتبنا له في الألواح كنقش الخاتم. ربيع بن أنس: **نزلت التوراة وهي سبعون وقر بعير**. وأضاف الكتابة إلى نفسه على جهة التشريف؛ إذ هي مكتوبة بأمره كتبها جبريل بالقلم الذي كتب به الذكر. واستمدّ من نهر النور. وقيل: هي كتابة أظهرها الله، وخلقها في الألواح. وأصل اللوح: لوح (بفتح اللام)؛ قال الله تعالى: [بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ. فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ] [البروج: 21، 22]. فكأن اللوح تلوح فيه المعاني. ويروى أنّها لوحان، **وجاء بالجمع؛ لأن الاثنين جمع**.

[6] المؤلّف هو: محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الحسني الحسيني الإيجي الشافعيّ (المتوفى: 905هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1424 هـ - 2004 م، الجزء الثاني، ص 322

[7] تفسير القرطبي، مرجع سابق، والربيع بن أنس هذا هو ابن زياد البكري الخراساني المروزي. سَمِعَ أَنَسَ بنَ مَالِكٍ وَأَبَا العَالِيَةِ الرِّيَاحِيَّ، -وَأَكْثَرَ عَنْهُ- وَالحَسَنَ البَصْرِيَّ. وعَنْهُ: سُلَيْمَانُ التَّيْمِيُّ، وَالأَعْمَشُ، وَالحُسَيْنُ بنُ وَاقِدٍ، وَأَبُو جَعْفَرٍ الرَّازِيُّ، وَعَبْدُ العَزِيْزِ بنُ مُسْلِمٍ، وَابْنُ المُبَارَكِ، وَآخَرُوْنَ. كَانَ عَالِمَ مَرْوَ فِي زَمَانِهِ. وَقَدْ رَوَى اللَّيْثُ، عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بنِ زَحْرٍ، عَنْهُ، وَلَقِيَهُ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ. قَالَ أَبُو حَاتِمٍ: صَدُوْقٌ. وَقَالَ ابْنُ أَبِي دَاوُدَ: سُجِنَ بِمَرْوَ ثَلاَثِيْنَ سَنَةً. قُلْتُ: سَجَنَه

لا ندري كيف يفكّر القرطبي، وكيف يستوعب المسائل؟ فأن تكون التوراة «سبعين وقر بعير» يستدعي قافلة لنقلها، وجيشاً لتنظيمها، واستحالة العمل بها.

ينسب الطبري الرواية نفسها إلى الربيع بن أنس أيضاً، مع زيادة أخرى معتبرة تتعلّق بكيفية القراءة وإمكاناتها، فقراءة جزء، هذه المرّة، يتمّ في سنة كاملة؛ ولذلك يستحيل على أيّ إنسان أن يقرأها في حياته كلّها!!

قال: «أُنزلت التّوراة وهي سبعون وقر بعير، يُقرأ منها الجزء في سنة، لم يقرأها إلّا أربعة نفر: موسى بن عمران، وعيسى، وعُزير، ويوشع بن نون، صلوات الله عليهم»[8].

هذا خلط عجيب! فحسب هذه الرواية، لم يقرأ التوراة، حين أُنزلت، وطوال حياة موسى، إلا موسى، ويوشع تلميذه وخليفته. من البيّن أنّ الرواية مناقضة لصريح القرآن، ومنافية لدور الكتب الإلهيّة، ومخالفة للقرآن، الذي هو أنموذج الكتب السماوية، مع اختلاف الظروف الزمنية، والاجتماعيّة، والثقافيّة، للشعوب الّتي أرسلت إليها. ولكنّه المنهج التكديسي عند الطبري، الذي يهتمّ بسرد المرويات، وذكر أسانيدها دون مراعاة لحوادث التاريخ، أو منطق العقل والنقل.

والرواية تتعارض -لا محالة- مع بنية التوراة المنشورة، التي تنصّ صراحةً على ما يأتي: «جَاءَ مُوسَى وَبَلَّغَ الشَّعْبَ بِكُلِّ كَلاَمِ الرَّبِّ وَأَحْكَامِهِ، فَأَجَابَ الشَّعْبُ بِصَوْتٍ وَاحِدٍ: كُلُّ مَا أَمَرَنَا بِهِ الرَّبُّ نَفْعَلُ -4- فَكَتَبَ مُوسَى جَمِيعَ أَقْوَالِ الرَّبِّ، ثُمَّ بَكَّرَ فِي الصَّبَاحِ وَشَيَّدَ مَذْبَحاً عَلَى سَفْحِ الجَبَلِ، وَنَصَبَ اثْنَيْ عَشَرَ عَمُوداً

أَبُو مُسْلِمٍ تِسْعَةَ أَعْوَامٍ وَتَحَيَّلَ ابْنُ المُبَارَكِ حَتَّى دَخَلَ إِلَيْهِ فَسَمِعَ مِنْهُ. يُقَالُ: تُوُفِّيَ سَنَةَ تِسْعٍ وَثَلاَثِيْنَ وَمائَةٍ. حَدِيْثُه: فِي السُّنَنِ الأَرْبَعَةِ. انظر: شمس الدين الذهبي (المتوفى 748هـ)، سير أعلام النبلاء، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، 1427هـ -2006م، 306/6.

[8] الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الجزء 9، سورة الأعراف. رقم 11755 – أصلها: حدثني المثنى، قال: ثنا محمد بن خالد المكفوف [...] الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: [وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنُ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي] [الأعراف: 150] يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَأَلْقَى مُوسَى الْأَلْوَاحَ. ثُمَّ اخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي سَبَبِ إِلْقَائِهِ إِيَّاهَا، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَلْقَاهَا غَضَباً عَلَى قَوْمِهِ الَّذِينَ عَبَدُوا الْعِجْلَ...

عَنْ قَتَادَةَ، قَوْلُهُ: "[أَخَذَ الْأَلْوَاحَ] [الأعراف: 154] قَالَ: رَبِّ إِنِّي أَجِدُ فِي الْأَلْوَاحِ أُمَّةً، خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَاجْعَلْهُمْ أُمَّتِي، قَالَ: تِلْكَ أُمَّةُ أَحْمَدَ. قَالَ: رَبِّ إِنِّي أَجِدُ فِي الْأَلْوَاحِ أُمَّةً هُمُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ: أَيْ: آخِرُونَ فِي الْخَلْقِ، سَابِقُونَ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، رَبِّ اجْعَلْهُمْ أُمَّتِي، قَالَ: تِلْكَ أُمَّةُ أَحْمَدَ. قَالَ: رَبِّ إِنِّي أَجِدُ فِي الْأَلْوَاحِ أُمَّةً أَنَاجِيلُهُمْ [ص: 453] فِي صُدُورِهِمْ يَقْرَءُونَهَا..

[وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ] [الأعراف: 150] وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ لَمَّا كَتَبَ لِمُوسَى -عَلَيْهِ السَّلَامُ- فِي الْأَلْوَاحِ التَّوْرَاةَ، أَنْذَاهُ مِنْهُ حَتَّى سَمِعَ صَرِيفَ الْقَلَمِ.. وَقِيلَ: إِنَّ التَّوْرَاةَ كَانَتْ سَبْعَةَ أَسْبَاعٍ فَلَمَّا أَلْقَى مُوسَى الْأَلْوَاحَ تَكَسَّرَتْ، فَرُفِعَ مِنْهَا سِتَّةُ أَسْبَاعِهَا، وَكَانَ فِيمَا رُفِعَ تَفْصِيلُ كُلِّ شَيْءٍ الَّذِي قَالَ اللَّهُ: [وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ] [الأعراف: 145] وَبَقِيَ الْهُدَى وَالرَّحْمَةُ فِي السَّبْعِ الْبَاقِي، وَهُوَ الَّذِي قَالَ اللَّهُ: [أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ] [الأعراف: 154] وَكَانَتِ التَّوْرَاةُ فِيمَا ذُكِرَ سَبْعِينَ وَقْرَ بَعِيرٍ يُقْرَأُ مِنْهَا الْجُزْءُ فِي سَنَةٍ... عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ، قَالَ: «**أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَهِيَ سَبْعُونَ وِقْرَ بَعِيرٍ، يُقْرَأُ مِنْهَا الْجُزْءُ فِي سَنَةٍ، لَمْ يَقْرَأْهَا إِلَّا أَرْبَعَةُ نَفَرٍ: مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ، وَعِيسَى، وَعُزَيْرٌ، وَيُوشَعُ بْنُ نُونٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ**» [ص: 456] وَاخْتَلَفُوا فِي الْأَلْوَاحِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: كَانَتْ مِنْ زُمُرُّدٍ أَخْضَرَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: كَانَتْ مِنْ يَاقُوتٍ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: كَانَتْ مِنْ بَرَدٍ.

محمد بن جرير الطبري (المتوفى 310هـ)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية في دار هجر، الدكتور عبد السند حسن، يمامة، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، 1422هـ/ 2001 م، عدد الأجزاء 26

عَلَى عَدَدِ أَسْبَاطِ بَنِي إِسْرَائِيلَ الاثْنَيْ عَشَرَ.-7- وتَنَاوَلَ كِتَابَ الْعَهْدِ، وَتَلاَهُ عَلَى مَسَامِعِ الشَّعْبِ، فَقَالُوا: كُلُّ مَا أَمَرَ بِهِ الرَّبُّ نَفْعَلُهُ وَنُطِيعُهُ»[9].

أمّا أن «يُقرأ منها الجزء في سنة» فهذا يعني أنّه لا يمكن العمل بها، أو تطبيقها! أمّا من مات ولم يكمل قراءتها، فالذنب للتوراة أن وصلته كاملة شاملة، أمّا من يقرؤها كاملةً، فعليه أن يخصّص لها حياته كلّها، ويتوقّف عنده العمل والسعي والإنتاج؟! وما أرسلت الكتب لتكون عائقاً أمام سير الحياة.

أمّا عُزير، فما كان باستطاعته أن يقرأ التوراة؛ لأنّ بني إسرائيل أضاعوا الألواح والنصوص، ونزل بعدها الزبور[10].

أمّا عيسى، فلا ندري كيف قرأ التوراة، وقد أُنزل عليه الإنجيل ناسخاً ومهيمناً على ما بين يديه من الكتاب. والأَوْلى أن يكون عيسى قد قرأ الزبور، وما كان الرسول بقادر على أن يقرأ التوراة ولا الزبور، ولا الإنجيل بحكم الأميّة، وفقدان المصادر وتحريفها.

أمّا السّيوطي (849هـ/1445م-911هـ/1505م) المولع دائماً بالتهويل والمبالغة، فقد اعتبر أنّ طول أحد الألواح يجب أن يكون ستّة أمتار تمشّياً مع مبدأ أنّ الجزء يُقرأ في سنة: «كان طول اللّوح اثني عشر ذراعاً [ستّة أمتار!!]»[11].

وعلى الرغم من أنّ المسألة لا تحتاج إلى تعليق، فإنّ الإمام الشّوكاني (1759م- 1834م) عرضها، ثمّ تصدّى لها بالعناية والنقد، والذي يهمّنا أنّه ذكر أسباب هذا الولع بالعجيب والمدهش، وتضارب الأقوال، وأحالنا على **منفذ الإسرائيليات**:

«الْأَلْوَاحُ الَّتِي أُنْزِلَتْ عَلَى مُوسَى كَانَتْ مِنْ سِدْرِ الْجَنَّةِ، كَانَ طُولُ اللَّوْحِ اثْنَيْ عَشَرَ ذِرَاعاً... وعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: كَانُوا يَقُولُونَ: كانت الألواح مِنْ يَاقُوتَةٍ. وَأَنَا أَقُولُ: إِنَّمَا كَانَتْ مِنْ زُمُرُّدٍ، وَكِتَابُهَا الذَّهَبُ، كَتَبَهَا اللَّهُ بِيَدِهِ، فَسَمِعَ أهل السّموات صَرِيفَ الْأَقْلَامِ. أَقُولُ: رَحِمَ اللَّهُ سَعِيداً مَا كَانَ أَغْنَاهُ عَنْ هَذَا الَّذِي قَالَهُ مِنْ جِهَةِ نَفْسِهِ، فَمِثْلُهُ لَا يُقَالُ بِالرَّأْيِ وَلَا بِالْحَدْسِ، وَالَّذِي يَغْلِبُ بِهِ الظَّنُّ **أَنَّ كَثِيراً مِنَ السَّلَفِ -رَحِمَهُمُ اللَّهُ- كَانُوا يَسْأَلُونَ الْيَهُودَ**

[9] الكتاب المقدّس، سفر الخروج 24

[10] هناك خلط كبير بين عزير المذكور في القرآن، وعزرا كاتب التوراة.

[11] جلال الدين السيوطي، الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور، دار الفكر، بيروت، 1993م، الجزء الثالث، صفحة 548. وأصل الإحالة كما يأتي: «الألواح التي أُنزِلت على موسى كانت من سِدر الجنّة. كان طول اللوح اثني عشر ذراعاً».

عَنْ هَذِهِ الْأُمُورِ، فَلِهَذَا اخْتَلَفَتْ وَاضْطَرَبَتْ، فَهَذَا يَقُولُ مِنْ خَشَبٍ، وَهَذَا يَقُولُ مِنْ يَاقُوتٍ، وَهَذَا يَقُولُ مِنْ زُمُرُّدٍ، وَهَذَا يَقُولُ مِنْ زَبَرْجَدٍ، وَهَذَا يَقُولُ مَنْ بُرْدٍ، وَهَذَا يَقُولُ مَنْ حَجَرٍ»[12].

أمّا ابن كثير (700- 774هـ)، فقد تردّد في الجمع بين التوراة والألواح في سلّة واحدة، فعرض رأيين مختلفين: «وكانت هذه الألواح مشتملة على التوراة، وقيل: الألواح أُعطيها موسى قبل التوراة فالله أعلم»[13].

ومردّ هذا التردّد أنّه ينطلق، كغيره من الباحثين، من القرآن الكريم، ثمّ يستأنس بالآراء والأقوال اليهودية. متناسياً أنّ القرآن يتحدّث عن التوراة الأصلية، بينما الفكر اليهودي، وحتى النصراني، يتحدّث عن كتب أسهم في تأليفها عدد من الكتبة.

ورواية ابن كثير يقول بها ربّيون، ورجال دين يهود معاصرون. وهذا نموذج:

«لقد أعطيت **المشنا** في سيناء لموسى معلّمنا مع التوراة، أثناء هبة التوراة في سنة 2448 (نحو 1300 سنة قبل العصر الحاليّ»[14].

هذا الاضطراب في تحديد دلالة مصطلح التوراة والخلط عند المسلمين بين التوراة المعنيّة في القرآن وبين التّوراة في اعتبار اليهود وبني إسرائيل، دام طويلاً.

وقد وُجدت بضع روايات تحدّثت عن نهي الرسول عن قراءة التوراة، ولكن لم تكن التوراة موجودة، عملياً، في البيئة العربية، ولا كُتبت بالعربيّة أصلاً، ولم يكن للصحابة حاجة إلى ذلك. ولم يبدأ انتشار الإسرائيليّات في الاتّساع إلا في عهد التابعين، ومن بعدهم. ولن تعرف التوراة على حقيقتها إلا في نهاية القرن الثاني الهجري على الأقلّ.

وعلى الرغم من أنّ أكبر مختصّ وناقد للتوراة هو **ابن حزم**، حيث تناولها بالنقد والتمحيص، إلا أنّ المصطلح ظلّ غامضاً عند المسلمين عدّة قرون، وما زالت علامات ذلك الخلط إلى اليوم.

---

[12] محمد بن علي الشوكاني اليمني (المتوفى 1250هـ)، فتح القدير، تفسير سورة الأعراف، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق/ بيروت، الطبعة الأولى، 1414ه، الجزء الثاني، ص 280

[13] أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (700-774 هـ)، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 142هـ - 1999م. ونصُّ الرواية كما يأتي: «وكانت هذه الألواح مشتملة على التوراة التي قال الله –تعالى-4 فيها: [وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ] [القصص: 43]، وقيل: الألواح أعطيها موسى قبل التوراة، فالله أعلم». الجزء الثالث، ص 474

[14] La Michna avait été donnée au Sinaï à Moshé Rabbénou avec la Torah lors du matane Torah, (don de la Torah) en l'an 2448 (environ 1300 ans avant l'ère actuelle). Rav Yehoshua Ra'hamim Dufour; Comment étudier le Talmud; 2ème cours- p 2.

التّوراة اليهوديّة:

ليست التوراة اليهوديّة واحدة، ولا هي كتاب واحد. التوراة اليهوديّة الربيّة خمسة أسفار؛ هي: التكوين، والخروج، واللاويون، والعدد، والتثنية. وليست هذه الأسفار المصدر الرئيس لعلم اليهود، ومن أسلم منهم مثل: كعب الأحبار، ووهب بن منبه. وإنّما لهم عدّة أسفار أخرى موجودة في العهد القديم من الكتاب المقدّس.

وليست هي، بدورها، المرجعيّة الأساسية لعلم اليهود. فالتلمود، في نظرهم، أهمّ من تلك الأسفار المذكورة. ولئن عُرِف التلمود بأنّه: «الكتاب الذي يشرح العقيدة اليهودية». إلا أنّه أوسع من ذلك بكثير، وأشدّ تعقيداً. فهو كتاب (حابل)؛ أي إنّه يحمل في طيّاته كتاباً في طيّاته كتاب، في طيّاته كتاب. فالتلمود هو عنوان موسوعة اليهود. وقد نُظِّم بطريقة خاصّة ومعقّدة: فمحور الانطلاق نصٌّ من الأسفار المذكورة سابقاً يتبعه شرح أوّل مقتضب، يدعى «الشرح أو التأويل الأوّل للتوراة اليهوديّة الربيّة». وجملة تلك الشروح تسمّى **المشنة** (Mishna). وهذه مشفوعة، بدورها، بحاشية عبارة عن مناقشات الربيّين، وتفاسيرهم، ووجهات نظرهم في الشرح الأوّل. وهذه الحواشي تسمّى **جمارا** (Guémara). يأتي بعدها **الحلقة** (Halakha)، وهي أحكام فقهيّة يصدرها الربيّون في مسائل حقوقيّة مُتنازَع فيها. وأخيراً نجد **الحديث** (حدّث/ Haggadah)، وفيه القصص، والخرافات، والملَح، والنوادر[15].

فالتلمود هو مجموع ما اختارته البيعة اليهوديّة الربيّة، واتّفقت عليه في جميع المجالات الدينيّة، والفقهيّة، والسياسيّة، والاجتماعيّة، والاقتصاديّة، والثقافيّة، وعلاقة اليهود بغيرهم. فهو المرجعيّة الوحيدة لليهود، لا التوراة المنشورة.

وهذا التلمود لا ينشره الربيّون الأحبار، وإنّما يُخرجون منه نسخة متى شاؤوا تحتوي على ما شاؤوا، وليست النسخة الأصليّة لا محالة.

وأوّل طبعة للتلمود ظهرت عام (1520م) في البندقيّة، ولم تتبعها طبعات كثيرة. فعندما يتحدّث مؤرّخونا عن «زاملتين من كتب أهل الكتاب»، أو «سبعين وقر بعير»، بغضّ النظر عن المبالغات، فإنّما يحيلون إلى المخطوطات التلموديّة[16].

[15] التلمود البابلي، المؤسّسة الأردنية للبحوث والمعلومات، عمّان، الطبعة الأولى، 2011م، الجزء الأول، ص 19

[16] بين السنوات 1868 و1897م، طبع التلمود في 16 مجلّداً، وهي المعتمدة اليوم للعموم.

تلك هي مراجع الإسرائيليّات؛ مخطوطات حبّرها الكتبة، والربيّون، والأحبار، والرهبان. وأصل تلك المخطوطات جميعها الرواية الشفويّة لما وضعه عزرا، ونحميا، وحجّي، وما نسبه الأحبار- الكتبة إلى الأنبياء عموماً[17].

وإذا قدّرنا أنّ موسى -عليه السلام- ظهر نحو (1350) قبل المسيح، عرفنا أنّ مخطوطات بني إسرائيل شرع فيها سبعة قرون بعد موسى على الأقلّ. فأيّة علاقة لها بالتوراة التي نزلت في بضعة ألواح، الله وحده يعلم عددها، ومادّتها، ومضمونها. ولكن ما يهمّنا، في هذا السياق، هو مدى اطلاع المسلمين على تلك المخطوطات، ومدى آثارها في بنية الفكر الإسلامي كتابياً وشفوياً؟

انتشار القصّ والإسرائيليّات:

ورد عن ابن عمر أنّه: «لم يقصّ أحد على عهد رسول الله، ولا عهد أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، رضي الله عنهم، وإنّما كان القصص حين كانت الفتنة»[18].

وفي سنن ابن ماجة: «عَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: لَمْ يَكُنِ الْقَصَصُ فِي زَمَنِ رَسُولِ اللهِ صلّى الله عليه وسلّم، وَلاَ زَمَنِ أَبِي بَكْرٍ، وَلاَ زَمَنِ عُمَرَ»[19].

ولكنّ الرّوايتين تتضاربان مع روايات أخرى، منها ما أورده **الذّهبي** (ت 748هـ) في (**سير أعلام النبلاء**): «أَوَّلُ مَنْ قَصَّ تَمِيْمٌ الدَّارِيُّ، اسْتَأْذَنَ عُمَرَ فَأَذِنَ لَهُ، فقصَّ قَائِماً. عَنْ حُمَيْدِ بنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ: أَنّ تَمِيْماً اسْتَأْذَنَ عُمَرَ فِي القَصَصِ سِنِيْنَ، وَيَأْبَى عَلَيْهِ، فَلَمَّا أَكْثَرَ عَلَيْهِ، قَالَ: مَا تَقُوْلُ؟ قَالَ: أَقْرَأُ عَلَيْهِمُ القُرْآنَ، وَآمُرُهُمْ بِالخَيْرِ، وَأَنْهَاهُمْ عَنِ الشَّرِّ. قَالَ عُمَرُ: ذَاكَ الرِّبْحُ، ثُمَّ قَالَ: عِظْ قَبْلَ أَنْ أَخْرُجَ لِلْجُمُعَةِ. فَأَذِنَ لَهُ، فَكَانَ يَفْعَلُ ذَلِكَ فَقَصَّ قَائِماً. فَلَمَّا كَانَ عُثْمَانُ، اسْتَزَادَهُ، فَزَادَهُ يَوْماً آخَرَ»[20].

يبدو أنّ الأمر نفسه حدث مع الحارث بن معاوية الكندي: سأل عمر بن الخطّاب عن القصص. فقال: «ما شئت، كأنّه كره أن يمنعه، قال: إنّما أردت أن أنتهي إلى قولك؟ قال: أخشى عليك أن تقصّ، فترتفع عليهم

[17] وآخرون جعلهم اليهود (أنبياء)، منذ 550 قبل المسيح تقريباً، مثل، عزرا ونحميا.

[18] المستطرف في كلّ فن مستظرف، ج 1، ص 225

[19] سنن ابن ماجه (ت 273هـ)، تحقيق شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، محمّد كامل قره بللي، عَبد اللّطيف حرز الله، دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولى، 1430هـ، 2009م. وعلى الرغم من أنّ هذا الأثر وصف بالصحة في كتب الحديث (صحيح)، إلا أنّ إسناده ضعيف لضعف العمري، واسمه عَبد الله بن عمر بن حفص، لكنّه متابع، تابعه أخوه عُبيد الله بن عمر، وهو ثقة، عند ابن أبي شيبة في مصنّفه: (745/8، 746 و749)، وابن حبان في صحيحه (6261).

[20] شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، 1427هـ، 2006م، 77/4

في نفسك، ثمّ تقصّ، فترتفع حتى يخيّل إليك أنّك فوقهم بمنزلة الثريّا، فيضعك الله تحت أقدامهم يوم القيامة بقدر ذلك»[21].

القصص أنواع، ولا يخلو مجتمع من قُصّاص، ورُواة أخبار وحكايات، وإنّما لَمْ يَكُنِ الْقَصَصُ أو لم يقصّ أحد بصفة رسميّة وعلنيّة في مسجد، أو ساحة، أو سوق، إلى زمن عمر بن الخطاب. فقد أُثر عنه أنّه كان يمنع رواية الحديث والشّعر، فما بالك بالحكايات والخرافات الاسرائيلية. وكان أكثر الصّحابة يكرهون القصص، وينهون عنها.

رُوي عن معاوية بن أبي سفيان أنّه حجّ، فأخبر بقاصّ يقصّ على أهل مكّة، فأرسل إليه معاوية، فقال: «أُمِرْتَ بِهَذِهِ الْقِصَصِ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ تَقُصَّ بِغَيْرِ إِذْنٍ، قَالَ: نُنْشِئُ عِلْماً عَلَمَنَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: لَوْ كُنْتُ تَقَدَّمْتُ إِلَيْكَ لَقَطَعْتُ مِنْكَ طَائِفَةً»[22].

نشأت الإسرائيليّات فعلاً، وترعرعت معها الخرافات، وانتشر معها وضع الأحاديث بمثل ذلك الصّنيع، ولأسباب أخرى سياسية ومذهبية. ولكنّ ذلك الوضع أسهم، في المقابل، في ازدهار الحركة النقدية، وابتكار علوم الجرح والتعديل، وقد عبّر المحدّث **سفيان الثوري** (97-121ه) عن ذلك بقوله: «لمّا استعمل الرّواة الكذب استعملنا لهم التاريخ»[23].

وقد تكوّنت ملامح مدرسة الإسرائيليّات في المجتمع الإسلاميّ منذ أواخر عهد النبوّة، إلاّ أنّها لم تبرز بوضوح، ولم تجد فضاء لانتشارها إلا في الفتنة الأولى زمن عثمان.

أمّا أبرز مؤسّسي هذه المدرسة فهم:

1) كعب الأحبار (ت 32ه):

«هو كعب بن مانع الحميري أبو إسحاق، المعروف بكعب الأحبار، كان من أهل اليمن، فسكن الشام. مات في خلافة عثمان، وقد زاد على المئة، وليس له في البخاري رواية، وفي مسلم رواية لأبي هريرة عنه من

[21] المتقي الهندي (ت 975هـ)، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، تحقيق بكري حياني، صفوة السقا، مؤسّسة الرسالة، الطبعة الخامسة، 1401هـ/1981م، 855/5

[22] النيسابوري المعروف بابن البيع (ت 405 هـ)، المستدرك على الصحيحين، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1411ه/1990م، 218/1.

[23] محمد عجاج الخطيب، أصول الحديث ومصطلحه، دار الفكر، الطبعة الثانية، دمشق، 1391ه/1971م، ص 254. وانظر: الكفاية، ص 119. وفتح المغيث، 133/4. والكامل لابن عدي، 4/3

طريق الأعمش عن أبي صالح. وقال في (**تهذيب التهذيب**) في ترجمته: وقد وقع ذكر الرواية عنه في مواضع في مسلم في أواخر كتاب الإيمان»[24].

كان يهودياً عالماً بكتبهم حتى كان يُقال له كعب الحبر، أو كعب الأحبار، وكان إسلامه في عهد عمر، وقيل في خلافة أبي بكر، وقيل إنّه أسلم في عهد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وتأخّرت هجرته، والأوّل أشهر، وسكن المدينة، وغزا الروم في خلافة عمر، ثمّ تحوّل في خلافة عثمان إلى الشام، فسكنها إلى أن مات بحمص في خلافة عثمان سنة اثنتين وثلاثين.

وقد أشار الأبشيهي (790-852هـ/ 1388-1448م) في كتابه (**المستطرف**) إلى أنّه كان يقصّ فلمّا سمع الحديث ترك القصص[25].

قال **ابن سعد** (168-230هـ- 785-845م) في طبقاته: إنّ كعباً ذُكر عند أبي الدّرداء، فقال: «إنّ عند ابن الحميرية لعلماً كثيراً». أمّا معاوية بن أبي سفيان فقد زكّاه، وقال فيه: «ألا إنّ كعب الأحبار أحد العلماء، إن كان عنده لعلم كالبحار، وإن كنّا فيه لمفرّطين»[26].

ولكنّ المشكلة تكمن، حقّاً، في هذا العلم الغزير: «الكثير كالبحار». فما مادته ومضامينه، وما مصادره؟ فإذا كان عالماً بكتب اليهود حتّى إنّهم لقّبوه كعب الأحبار. فيعني ذلك منهجياً وتاريخياً أنّ مصدر معارفه ليس التوراة، التي أنزلت على موسى؛ لأنّ نصّها الأصليّ ضاع وحُرِّف منذ قرون قبل داود. ولا وجود لوثيقة تذكر يمكن ربطها بالتوراة؛ إذ اندثر كلّ ما له علاقة بها.

وإنّما علمه مستمدّ ممّا وصل إليه مخطوطاً، أو مرويّاً شفهياً وشائعاً عن الكتبة والربيّين منذ عزرا ونحميا. وهذا في واقع الاستقصاء التاريخي لا علاقة له بتوراة موسى إلا في القليل النادر. فمعلوماته، ومعارفه، وأخباره الأوّلية أغلبها، إن لم يكن كلّها، يستند على خرافات، وأحداث، ومرويات إسرائيليّة متوارثة، جعل منها المؤرّخون والنسّابون حقائق منذ القدم. ومعلوم أنّ آفة الأخبار رواتها[27].

---

[24] المباركفوري، (1283-1353هـ)، تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د، ت)، 117/12

[25] شهاب الدين الأبشيهي، المستطرف في كلّ فن مستظرف، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، 1419هـ، 111/1. وهذا نصّ الرواية: «روي أنّ كعباً كان يقصّ فلمّا سمع الحديث ترك القصص».

[26] ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، إشراف محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة، بيروت، 1379ه، 335/13

[27] هو عجز لبيت شعر للشريف الرضي، وهذا تكملته: هم نسبوا عني الذي لم أفُه به - وما آفة الأخبار إلا رواتها.

انظر: القاضي حسين بن محمد المهدي، صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال، راجعه عبد الحميد محمد المهدي، منشورات وزارة الثقافة اليمنية، 2009م.

وممّا لا ينكر على كعب ذكاؤه وقدرته على المقارنة والاستقراء. وقد تفطّن الصحابة إلى الفوارق الكثيرة بين ما يقوله كعب والواقع: «قال أبو اليمان: سمع معاوية يحدّث رهطاً من قريش بالمدينة، وذكر كعب الأحبار، فقال: إن كان من أصدق هؤلاء المحدِّثين الذين يحدِّثون عن أهل الكتاب، **وإن كنّا مع ذلك لنبلو عليه الكذب**.[لنبلو عليه الكذب: أي نجد بعض ما يخبرنا عنه يقع بخلاف ما يخبرنا به، ويقع ذلك خطأ منه، أو لأنّ ما يخبر به محرّف في الأصل، وليس المراد أنه يتعمّد الكذب]»[28].

إنّ الشّرح -لا محالة- إضافة من قبل المحقّق مصطفى ديب البغا، أستاذ الحديث وعلومه في كلية الشريعة، جامعة دمشق. ومن المرجّح أنّ الكثير ممّا رُوي عن كعب الأحبار مكذوب عليه أو مُختلَق.

2) تميم بن أوس الدّاري (ت 40ه):

«هو تَمِيْمٌ الدَّارِيُّ، أَبُو رُقَيَّةَ بنُ أَوْسِ بنِ خَارِجَةَ بنِ سَوْدِ بنِ جَذِيْمَةَ اللَّخْمِيُّ الفِلَسْطِيْنِيُّ. وَالدَّارُ بَطْنٌ مِنْ لَخْمٍ، وَلَخْمٌ فَخِذٌ مِنْ يَعْرُبَ بنِ قَحْطَانَ. صَاحِبُ رَسُوْلِ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَفَدَ تَمِيْمٌ الدَّارِيُّ سَنَةَ تِسْعٍ، فَأَسْلَمَ. مَاتَ سَنَةَ أَرْبَعِيْنَ. وَحَدِيْثُهُ يَبْلُغُ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ حَدِيْثاً، مِنْهَا فِي صَحِيْحِ مُسْلِمٍ حَدِيْثٌ وَاحِدٌ»[29].

وهو صاحب القصّة العجيبة: الجسّاسة.

3) نوف البكالي (ت 95ه):

تابعي من أهل دمشق، عالم بالإسرائيليات، وكان ابن امرأة كعب الأحبار. قدّم لنا **المباركفوري** (1283-1353ه) في كتابه: شرح جامع الترمذي معلومات مهمّة عنه: «إنّ نوفا بفتح النون وسكون الواو بعدها فاء، هو ابن فضالة (البكالي) بكسر الموحدة، وبالكاف مخفّفاً، وبعد الألف لام، وهو منسوب إلى بني بكال بن دعمي بن سعد بن عوف بطن من حمير. ويُقال إنّه ابن امرأة كعب الأحبار، وقيل ابن أخيه. وهو تابعي صدوق. يزعم أنّ موسى صاحب بني إسرائيل ليس بموسى صاحب الخضر. وفي رواية ابن إسحاق، عن سعيد بن جبير عند النسائي، قال: كنت عند ابن عباس، وعنده قوم من أهل الكتاب فقال بعضهم: يا ابن عباس إنّ نوفا يزعم عن كعب الأحبار أنّ الذي طلب العلم إنّما هو موسى بن ميشا؛ أي ابن إفراثيم بن يوسف عليه السّلام، فقال ابن عباس أسمعت ذلك منه يا سعيد؟ قلت نعم قال: كذب نوف»[30].

---

[28] صحيح البخاري، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، الطبعة الثالثة، 1407ه/1987م، تحقيق: مصطفى ديب البغا، 2679/6

[29] الذّهبي، سير أعلام النبلاء، 75/4، مرجع سابق.

[30] تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، مرجع سابق، 73/17

وفي رواية أخرى: كذب عدوّ الله. هذا التكذيب من ابن عباس مسألة خطيرة، حاول المحدّثون القدماء والمعاصرون الالتفاف حولها، والتنقيص من حدّتها. وهذه أمثلة عن ذلك التلفيق:

أ)- قال **ابن التين** (ت 611هـ): «لم يرد ابن عباس إخراج نوف عن ولاية الله، ولكن قلوب العلماء تتنفر إذا سمعت غير الحقّ، فيطلقون أمثال هذا الكلام لقصد الزجر، وحقيقته غير مرادة»!![31].

ب)- قال **النووي** (631-676هـ): «هو على وجه الإغلاظ والزجر عن مثل قوله لا أنّه يعتقد أنّه عدوّ الله حقيقة، إنّما قاله مبالغة في إنكار قوله لمخالفته قول رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان ذلك في حال غضب ابن عباس، لشدّة إنكاره، وحال الغضب تطلق الألفاظ، ولا تراد بها حقائقها»[32].

ج)- قال **ابن حَجَر** العَسْقلاني (773- 852هـ): «نوف بفتح النون، وسكون الواو، ابن فضالة، بفتح الفاء والمعجمة، البكالي بكسر الموحدة وتخفيف الكاف، ابن امرأة كعب، شامي مستور، وإنّما كذب ابن عباس ما رواه عن أهل الكتاب من الثانية. مات بعد التسعين»[33].

ونذكر الآن أمثلة عن مرويّاته الغريبة والسريعة التي لا يتورّع أن يقول فيها ما شاء تحت أيّ ظرف، ما دام عالماً بالتوراة والاسرائيليات:

- عن عامر الأحول، قال: سُئل نوف عن قوله تعالى: [وجعلنا بينهم موبقاً] قال: وادٍ بين أهل الضلالة، وأهل الإيمان.
- عن الحكم، عن نوف، قال: كانت النّمل، في زمان سليمان عليه السلام، أمثال الذّباب.
- عن أبي إسحاق، عن نوف، في قوله تعالى: [وشروه بثمن بخس] قال: البخس هو الظلم، والثمن عشرون درهماً.
- عن أبي عمران الجوني: أنّ نوفاً كَانَ يَقُولُ: إِنِّي لَأَجِدُ فِي كِتَابِ اللَّهِ الْمُنَزَّلِ أَنَّ ابْنَ الزُّبَيْرِ فَارِسُ الْخُلَفَاءِ[34].

---

[31] المرجع نفسه، 73/17. وابن التين هو محدث وفقيه تونسي من مدينة صفاقس، له شرح على البخاري، توفي سنة 611ه، ودفن في صفاقس. انظر ترجمته في: شجرة النور الزكية، ص 168، ونيل الابتهاج على هامش الديباج المذهب، ص 188، وهدية العارفين، 630/1

[32] صحيح مسلم بشرح النووي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1407ه/ 1987م، 142/7

[33] ابن حجر العسقلاني (ت 852هـ): تقريب التهذيب، تحقيق محمد عوامة، دار الرشيد، سورية، الطبعة الأولى، 1986م، 682/1، ترجمة رقم 7213

[34] المؤلف: أبو الفداء إسماعيل ابن كثير (ت 774هـ)، البداية والنهاية، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، 1408هـ/ 1988م، 368/8

أخرج حنبل بن إسحاق في آخر جزء من كتاب الفتن، رواية عجيبة تكشف طبيعة النصوص والأخبار، التي يسوقها نوف البكالي بطريقة ناعمة، ويزجّ بها في صلب الفكر الإسلامي، وفي ثنايا تاريخه: «عن أبي غالب، قال: كنت أمشي مع نوف بن فضالة، ولا أعرفه، حتى انتهيت إلى عقبة أفيق، فقال: هذا المكان الذي يُقتل فيه الدجال. فقلت: من أنت؟ فقال: أنا نوف، فقلت: يرحمك الله، ألا أخبرتني حتى أسامرك، وأذاكرك، وأحمل عنك! فقال: من أنت؟ فقلت: من أهل البصرة، فقال: هل إلى جنبكم جبل يقال له سَنِير؟ فقلت: سنام، فقال: هو هو، فقال: هل إلى جنبكم نهر يقال له الصَّفِي؟ فقلت: صفوان، فقال: هو هو، أما إنهما يسيران مع الدجال طعاماً وشراباً، وهو جبل ملعون، وهو أول جبل وُضع في الأرض. ثم ينزل عيسى عليه السلام، فيمكث في الأرض أربعين صباحاً، اليوم كالساعة، والشهر كالجمعة، والجمعة كاليوم»[35].

وحنبل بن إسحاق هذا هو أبو علي حنبل بن إسحاق بن حنبل الشيباني، من حفّاظ الحديث. توفّي في واسط سنة 273ه/886م. له ثلاثة كتب هي: **(التاريخ)** و**(الفتن)**، و**(محنة أحمد بن حنبل)**. وهو ابن عمّ الإمام أحمد، وتلميذه.

4) عبد الله بن عمرو بن العاص (ت 65ه):

هو عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم القرشي السهمي. أسلم قبل أبيه، ولم يكن بين مولدهما إلا اثنتا عشرة سنة. كان من أكثر الصحابة رواية للحديث الشريف، قال عنه أبو هريرة: ما كان أحد أكثر حديثاً منّي عن رسول الله، إلا عبد الله بن عمرو، فإنه كان يكتب ولا أكتب. وتعرف الصحيفة، التي كان يكتب فيها بالصحيفة بالصادقة. تُوُفي سنة خمس وستين من الهجرة.

روي عنه خبر مشهور أنّه: وجد يوم اليرموك زاملتين من كتب أهل الكتاب، وكان يحدّث عنهما كثيراً.

والزامِلة، حسب لسان العرب، هو البعير يَسْتَظْهِر به الرجلُ يَحْمِل عليه متاعه وطعامه، أو البَعير الذي يُحْمَل عليه الطعامُ والمتاع. وعند ابن سِيدَهْ: الزَّامِلة الدّابة التي يُحْمَل عليها من الإبل وغيرها[36].

[35] صفحة 165-166، رقم 50، وأخرجه نعيم بن حماد في كتاب الفتن: رقم 1569، طبعة الزهيري، ورقم 1562، الطبعة التوفيقية. انظر: جزء حنبل (التاسع من فوائد ابن السماك) لأبي علي حنبل بن إسحاق بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى 273هـ)، تحقيق هشام بن محمد، مكتبة الرشد، السعودية، الرياض، الطبعة الثانية، 1419هـ/ 1998م. وانظر أيضاً: حنبل بن إسحاق، الفتن، تحقيق عامر حسن صبري، دار البشائر الإسلامية، لبنان، الطبعة الأولى، 1419هـ/ 1998م.

[36] ابن منظور (ت 711هـ)، لسان العرب، دار صادر، الطبعة الثالثة، بيروت، 1414هـ، 310/11

5) وهب بن منبه (34-114هـ):

هو: «وَهْبُ بنُ مُنَبِّهِ بنِ كَامِلِ بنِ سِيْجِ بنِ ذِي كِبَارٍ الأَخْبَارِيُّ، القَصَصِيُّ اليَمَانِيُّ الصَّنْعَانِيُّ. أبوه مُنَبِّهٌ مِنْ أَهْلِ هَرَاةَ، خَرَجَ أَيَّامَ كِسْرَى، ثُمَّ إِنَّهُ أَسْلَمَ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَحَسُنَ إِسْلاَمُهُ. وُلِد وهب فِي زَمَنِ عُثْمَانَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَثَلاَثِيْنَ. وَقَدِ امْتُحِنَ وَهْبٌ، وَحُبِسَ، وَضُرِبَ. ضَرَبَه الخَبِيْث يُوْسُفُ بنُ عُمَرَ بنِ مُحَمَّدِ بنِ الحَكَمِ بنِ أَبِي عُقَيْلٍ الثَّقَفِيُّ حَتَّى قَتَلَهُ سَنَةَ عَشْرٍ وَمائَةٍ»[37].

كان شديد العناية بكتب الأوّلين، وأخبار الأمم وقصصهم؛ ولذلك كان يشبّه بكعب الأحبار في زمانه. وقال عنه الذهبي في المغني: «وهب بن منبه ثقة، مشهور، قصاص خير، ولكن ضعّفه أبو حفص الفلاس وحده»[38].

ذكر **الجندي الكندي** في كتابه **(السّلوك في طبقات العلماء والملوك)** أنّ وهب بن منبّه قال: «إنّي قرأت شيئاً من السنّة لعدّة كتب من كتب الله، التّي أنزلها الله على أنبيائه من السّماء، اثنين وتسعين كتاباً منها اثنان وسبعون من الكنائس وعشرون في أيدي الناس لا يعلمها إلا القليل. ولقد شاركت الناس في علمهم وعلمت كثيراً ممّا لم يعلموا. وقد قرأت كتب عبد الله بن سلام، وكتب كعب الأحبار، وقرأت التّوراة، فوجدت فيها: أنا الله خالق الخير ومقدّره، وطوبى لمن قدرته على يديه، وأنا خالق الشرّ ومقدّره، فويل لمن قدّرته على يديه من خلقي. وقرأت الإنجيل فوجدته كذلك»[39].

لعلّه من المفيد أن نضع الأمور في نصابها.

أوّلاً: لا يوجد اثنان وتسعون كتاباً أنزلها الله على أنبيائه من السّماء، لا في زمن وهب بن منبّه، ولا قبله، ولا قال بذلك نبيّ ولا رسول. ولم يذكر القرآن سوى خمسة كتب منزّلة. فابن منبّه لا ينطلق من القرآن في ثقافته وعلمه، وإنّما هو يصدّق موروثه الثّقافيّ اليهوديّ والفارسيّ. وادّعاؤه ذلك -إن صحّ عنه- لا يُفسَّر إلا بأنّه كان يتظاهر بالعلم ليجد مكانه ومكانته في السّاحة. وحسب الرّواية، فابن منبّه كان يعتقد بنبوّة كهّان بني إسرائيل، وأحبار اليهود، وحواريّ المسيحيّين.

[37] شمس الدين الذهبي (المتوفى 748هـ)، تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام، المحقق الدكتور بشار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 2003م، 334/3

[38] ابن العماد الحنبلي (المتوفى 1089هـ)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، حقّقه محمود الأرناؤوط، خرج أحاديثه عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق/ بيروت، الطبعة الأولى، 1406هـ /1986م، 74/2

[39] الجندي الكندي، السّلوك في طبقات العلماء والملوك، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط 2، 1416هـ/1995م، 100/1

ثانياً: لا يمكن أن يكون قد قرأ ما ادّعاه لسببين: اللّغة، وصعوبة الوصول إلى تلك المخطوطات، إلا إذا كانت ممّا وجده المسلمون في الغزو، وتُرجم بعضه. وإن فعل، فهذا دليل على حرصه وشغفه بثقافة أجداده اليمنيّين، والفرس، وحمير، وبالمسيحيّة الحبشيّة المنتشرة في اليمن آنذاك. وربّما فعل ذلك ليفهم بها القرآن الكريم، وينشرها في تفسيره ووعظه.

ثالثاً: حسب ذلك «العدد اثنين وتسعين»، يكون وهب ابن منبّه قرأ العهد القديم، والعهد الجديد، وأسفاراً كثيرة، وهذا هو المُدهش حقّاً.

رابعاً: يؤكّد وهب بن منبّه أنّه قرأ «كتب عبد الله بن سلام، وكتب كعب الأحبار»، وهذا دليل على أنّ ابن سلاّم، وكعب الأحبار، حرصا، منذ إسلامهما، على نشر معتقداتهم شفويّاً وكتابيّاً، وهي تحتوي التّشبيه، والتّجسيم، والخرافة.

وكما لاحظ الشّهرستاني، فإنّ التّشبيه في اليهود طباع[40].

خامساً: خاض بعض الصّحابة والتابعين في القدر انطلاقاً ممّا سمعوا، أو قرؤوا في صحف ابن سلام، وكعب الأحبار، وغيرهما. وقد كان الصّحابة، والتّابعون، والمسلمون بعدهم، يعتقدون أنّ كتب اليهود والمسيحيّين كتباً إلهيّة، ولكنّها محرّفة، وما كان باستطاعتهم التّفريق بين المحرّف وغيره في كلّ ما يسمعون أو يقرؤون.

6) ابن جريج (80-150ه):

هو أبو الوليد عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الرومي، ثم المكّي، مولى بني أمية. ولد سنة ثمانين، وتُوفّي سنة خمسين ومئة (150). إمام الحجاز، أخذ عن عطاء وطبقته، وهو أوّل من صنّف الكتب في الحجاز، كما أنّ سعيد بن أبي عروبة أوّل من صنّف في العراق. قال أحمد: كان من أوعية العلم، ولم يطلب العلم إلا في الكهولة[41].

بعد أن عرضنا بعض النماذج والأمثلة ممّن اشتهر في التاريخ الإسلامي برواية الإسرائيليات، والأخذ عن التراث اليهودي، والمسيحي، والفارسي أيضاً، ممّا كان له الأثر الجسيم في نشر الخرافات، وإشاعة ما

[40] الشهرستاني، الملل والنحل، تحقيق أمير علي مهنا، دار المعرفة، بيروت، 1993م، 121/1

[41] شذرات الذهب، مرجع سابق، 220/1

سُمّي بعلم الغيب والمستقبل، وبعض ملامح الاسكاتولوجيا، نعمد إلى التعريف الموجز بهذا العلم، ثمّ نضرب له أمثلة من صميم التفكير الإسلامي اعتماداً على المنهج التطبيقي.

علم الغيب والإسكاتولوجيا:

يبدو أنّه لا تخلو ثقافة شعب أو أمّة من الانتظار، والخلاص، والمنتظَر المخلِّص، منذ أن كانت البشريّة بشريّة؛ بل وما فارقتها إلى اليوم. وهي منظومة تنظّر لآخر الزمان، وتنتج نوعاً من الأدب خاصّيته التنبّؤ بما سوف يحدث مستقبلاً ضمن مفاهيم وموضوعات، وتعاليم خاصّة، أو ما يسمّى أدب النهاية، أو الفكر الأخروي، المعروف بالمصطلح الأجنبيّ (Eschatologie - Eschatology).

تعرّف موسوعة **أنفرساليس** (Universalis) هذا الأدب بأنّه: «علم الأشياء النهائيّة الأخيرة، أو النهايات الأخيرة للإنسان» (ou des «fins dernières» de science des choses ultimes (l'homme

وتجعله موسوعة **أنكارتا** (Encarta) «مجموعة الاعتقادات المتعلّقة بالنهايات الأخيرة للإنسان وللعالم».

وتعرّفه موسوعة اليهود واليهوديّة والصهيونيّة للدكتور **عبد الوهّاب المسيري** بأنّه:

«الفكر الأخروي، ويُشار إليه، في الإنجليزية، بكلمة (إسكاتولوجي) من الكلمة اليونانية (إسكاتوس)، ومعناها (آخر)، أو (بعد). ويُشير المصطلح إلى المفاهيم، والموضوعات، والتعاليم الخاصّة بما سيحدث في آخر الزمان، وإلى العقائد الخاصّة بعودة الماشيَّح، والمحن التي ستحلُّ بالبشرية بسبب شرورها، والصراع النهائي بين قوى الشرّ وقوى الخير (حرب يأجوج ومأجوج)، والخلاص النهائي، وعودة اليهود المنفيين إلى أرض الميعاد، وإلى يوم الحساب، وخلود الروح، والبعث، وهي الموضوعات التي تظهر، أساساً، في كتب الرؤى (أبوكاليبس)، التي تعود جذورها إلى الحضارات البابلية، والمصرية، والكنعانية، وخصوصاً الفارسية الزرادشتية»[42].

[42] عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، دار الشروق، مصر، 1999م، 252/16

وفي القرن الثامن عشر المسيحيّ، أطلق كاتب فرنسيّ على ذلك الفكر مصطلح (messianisme). وهذا المصطلح ليس له ما يقابله في العربيّة، لا لافتقار المسلمين إلى أدب نهاية، أو أدب أخروي، وإنّما لوضعيّة ذلك الأدب، ومكانة أصحابه في التراث الإسلاميّ.

ومن العراقيل الأساسيّة لنقد ذلك الأدب، أنّه ملأ، أوّلاً، مصنّفات الحديث، ومنها انتقل إلى تفسير القرآن، وكتب التاريخ والأدب، ويُعدّ نقده نقداً للحديث، وتشكيكاً في السنّة، ذلك أنّ أصحاب الحديث فرضوه (عقيدة).

ويصلح مصطلح (انتظاريّة) ليشتمل على نظريّة الانتظار أو منظومته. أمّا مصطلح (تمسيحيّة) فهو ترجمة للمصطلح الفرنسيّ (messianisme) نظراً إلى أنّ مصطلح مسيح هو مصطلح مركزي في أدب النهاية عند كلّ من بني إسرائيل، واليهود، والمسيحيّين، والمسلمين.

تداخلت المعتقدات، وتلاقحت الثقافات، عبر العصور بصفة آليّة في الفضاءات الجغرافيّة الممتدّة من العراق إلى مصر، ومن سورية إلى الهند، مروراً بفارس؛ لذلك نجد المرتكزات نفسها في أدب النهاية. وإن اختلفت المشاهد التصويريّة لمقدّمات النهاية، ولظهور المخلّص من إله، أو نبيّ، أو مسيح، وإن اختلفت النهاية بحياة أخرويّة، أو بتجديد الحياة الدنيويّة، في عالم تطهّري لا تعكّره خطايا البشر.

اتّخذت المسيحيّة في تلك الفضاءات صبغتها (السماويّة) لدى الشعوب والأمم، ولهذه الصبغة ما يفسّرها، فتلك الشعوب البابلية، والمصرية، والكنعانية، والفارسية، والعربيّة؛ أي شعوب الشرق الأوسط والأدنى، تشترك كلّها في شيئين على الأقلّ: تلاقح ثقافاتها ومعتقداتها منذ السومريّين، والكلدانيّين، والفراعنة، وانتشار بقايا الدين السماوي بينها منذ نوح عليه السلام. ودوام ذلك الفكر، وتواصل ذلك الأدب، إنّما هو ناتج عن تلك الأسباب وتداخلها، ورسوخ مظاهر الهويّة والعنصريّة في الفكر البشريّ منذ القدم.

وقد اعتُبر أدب النهاية، لدى كثير من الباحثين، ضرباً من الخرافات والأساطير، التي تعود جذورها إلى الحضارات البابلية، والمصرية، والكنعانية، ولاسيما الفارسية الزرادشتية.

ولكنّ هذا لا يمنع أن تكون مفردات ومفاهيم البعث، والحساب، والحياة، في الآخرة من بقايا دعوات أنبياء الله ورسله، وإنّما تلاعبت بها أيدي البشر وعقولهم بالتحريف المتعمّد تارةً، والتغيير والتبديل بطول العهد تارةً أخرى، أو بالروايات الشفهيّة، وتداخل المواريث الثقافية.

والبعد الأخرويّ بمفهومه المتعلّق بنفي الفناء، والطموح إلى الخلود، بتواصل الحياة بعد موت الفرد أو المجموعة، يتجاوز حدود الخيال البشريّ، وإن كانت تلك الحدود لا ضوابط لها.

الخيال البشريّ مرتهن -لا محالة- بالعقل، والعقل ينضبط أوّلاً بالواقع. وبقدر ما تتّسع حدود الواقع بالاكتشاف، وبقدر ما يتغيّر الواقع بتغيّر نمط الحياة، بقدر ما يتّسع الخيال. والمفهوم الأخرويّ لا يتأتّى من الأحلام والتطلّعات أو الهيستيريا)؛ لأنّه قد يرتكز على معطيات عقليّة ذات روافد تأويلية. كذلك لا ينتج البعد الأخرويّ عن المخدّرات والإغماءات، فهو لا يأتي من فراغ.

والمقارنة بين نوعين مختلفين من الفكر الأخرويّ في المرتكزات، والغايات، والأبعاد، قد يبيّن العلاقة بينهما، وإن كانت رقيقة كالشعرة. والنوعان هما القرآن الكريم في حديثه عن الانتظار، والآخرة، والبعث، والحساب، من جهة، والتمسيحيّة عند بني إسرائيل، واليهود، والمسيحيّين، والمسلمين، من جهة أخرى. وقد تثير مثل هذه المقارنة تساؤلين، على الأقلّ، حول مدى صدقيّة حشر المسلمين ضمن أولئك الأقوام، أو إلى أيّ حدٍّ يمكن الإقرار بوجود أدب تمسيحيّ في التراث الإسلاميّ!!.

إنّ الداعي إلى هذا الطرح هو إجراء اعتباري منهجي قد لا يخفى على الباحث المدقّق في أصول الإسلام، وهو اعتبار أدب النهاية عند المسلمين لا علاقة له بالقرآن الكريم، ولا بالهدي النبويّ. وإنّما قد يكون (ملخّصات) لأدب النهايات عند بني إسرائيل، واليهود، والمسيحيّين خاصّة. فعند أولئك جميعاً نجد الشخصيّات نفسها، والأحداث ذاتها، المتعلّقة بفلسفة نزعة الانتظار وتأويلاتها المتشعّبة. وعند أولئك جميعاً سنرى أنّ أدب النهاية بُني، أساساً، على مفهوم التضاد أو التقابل بين الخير والشر، والحقّ والباطل. الذي تجسّم في تأسيس تقديس قال بحتميّة ظهور وجه الشرّ والفساد استلزم، بالتبعية، ظهور مخلّص سُمّي المسيح عند الأوائل، وسُمّي، أيضاً، المسيح والمهديّ والغائب عند المسلمين. ومن الغريب، أيضاً، أن يتّفقوا جميعهم على عدوّين منتظرين هما يأجوج ومأجوج والدجّال.

ولا يجوز الاستناد، هنا، إلى ادّعاء أنّ الإسلام، والمسيحيّة، واليهوديّة، ديانات سماويّة لها جذور مشتركة، من حيث المصدر، أو تأثُّر تلك الديانات بعضها ببعض.

لا توجد علاقة فعلية للإسلام باليهوديّة والمسيحيّة لا في المصدر، ولا في التاريخ، ولا في أركان الدين وتشريعاته، وإن كانت، من حيث الأصل، ديانة واحدة منذ آدم إلى محمّد.

تتّجه بحوث علم الأديان الحديثة إلى التشكيك في المقولات السائدة حول اليهوديّة والمسيحيّة، من حيث التأسيس، والتكوين، والتدوين. فاليهود ليسوا من المؤمنين بموسى وتوراته، كما أنّ المسيحيّين ليسوا من

المؤمنين بعيسى وإنجيله. والكتاب المقدّس بعهديه القديم والجديد كتبه كهنة، وكتبة مجهولون، على فترات زمنيّة دامت أكثر من عشرة قرون بالنسبة إلى العهد القديم. ولا أثر في ذلك الكتاب لوحي إلهيّ، ولا ليوم القيامة، ولا لبعث وحساب. وعلى الرغم من ذلك الاختلاف الجوهريّ بين الإسلام والديانات الأخرى، فقد مرّت تلك المفاهيم، والموضوعات، والتعاليم الخاصّة بأدب النهاية، من التراث الإسرائيليّ-اليهوديّ- المسيحيّ إلى العقل المسلم.

فكيف تسرّبت، وكيف ظهر أدب النهاية عند المسلمين، وكيف طبع ثقافتهم، وشكّل عقليّاتهم؟

لا يدّعي هذا البحث الإجابة كليّاً عن تلك الأسئلة، وما يتفرّع عنها، ولكنّه سيعرض، في إيجاز، حوصلة تحاول أن تبيّن أهمّ المراحل التاريخيّة، والعوامل الثقافيّة، والسياسيّة، التي سهّلت مرور ذلك المعتقد، وذلك الفكر، وذلك الأدب المتعلّق بالمنتظر والخلاص، إلى فئة كبيرة من المسلمين. ولعلّه يكون مفيداً أن يتّضح البون الشاسع بين مفهوم النهاية، والبعث، والحساب، والآخرة، في القرآن، وبين مضامين أدب النهاية، أو الأدب الأخرويّ. قد يكون هذا مفيداً، إن لم يكن ضروريّاً، للمقارنة بين المنهج القرآنيّ، ومرتكزاته، وأبعاده، وغاياته، وبين ما في أدب النهاية من تلك المرتكزات، والغايات، والأبعاد.

أما الحديث عن الغيب فهو أنواع:

أوّلاً: الغيب المطلق: وهو في المفهوم الإسلامي خاصّ بالله عزّ وجلّ، لم يطّلع عليه أحد من مخلوقاته. وهذا النوع هو مشيئة الله الّتي لا يشاركه فيها أحد. ولو اطّلع مخلوق على هذا الغيب، أو كانت له قدرة على إنشاء غيب، لتدخّل في تسيير الكون: [لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ] [الأنبياء: 22]. ومن هنا، يأتي لزوم الإيمان بالغيب، واليقين به، على المسلم؛ لأنّه نفي للشرك.

ثانياً: الغيب محدّد بمصير الإنسان، وهو أقسام:

أ)- مجهول لا يعلم منه الإنسان إلا ما أخبر به الله في كتبه السماويّة، ومن ذلك بداية الخلق، وبداية الإنسان ونهايتهما.

ب)- مخفيّ قابل للتحقّق، وهو ما أخبر به الله أنبياءه ورسله عن بعض المستقبل الّذي يهمّ أممهم تحذيراً أو تنبيهاً، ومنه ما أخبر به الرسول أمّته من التحوّلات العقائديّة، والسياسيّة، والأخلاقيّة، أو بعض الظواهر الكونيّة.

ج)- مخفيّ يمكن للإنسان اكتشافه، ولا دخل للإيمان، والكفر، والشرك، في قدرات الإنسان هذه، ومنه اكتشاف نظام الكون، والقوانين الفيزيائيّة، والآليّة المنظّمة له.

د)- مخفيّ لا يستطيع الإنسان معرفته: [إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ] [لقمان: 34]. [يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ) [الأعراف: 187]. [وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً] [الإسراء: 85].

فالقيامة، والروح، وماذا تكسب النّفس غداً، أو ماذا يحدث لها، ولحظة الموت. كلّها من الغيب المخفي الذي لا يمكن الوصول إليه؛ لذلك نجد أنّ الذين يستمدّون علمهم من مصادر دينية قديمة يمتلكون جرأة معتبرة في التفاعل مع تلك المسائل، وإيجاد الأجوبة عنها. وسنأخذ مثالاً بارزاً هو **كعب الأحبار**، باعتباره مخترقاً لحدود العقل، ومنفتحاً على عوالم هي، في نظره، اسكاتولوجيا المطلق والمدهش.

كعب الأحبار وعلم الغيب:

تميّز كعب الأحبار، في تراثنا، بظاهرة الإحاطة بعلم الغيب الماضي والمستقبل. فلا يكاد يوجد حدث تاريخيّ إلا وله فيه قول.

«عن ابن أبي ذئب، قال: استلقى عبد الله بن الزبير يوماً فرأى طائراً في جو السماء، فقال: حدثني بن كعب أنّه لا يصعد طير يطير في السماء أكثر من اثني عشر ميلاً. قال: وما أصبت في سلطاني شيئاً إلا قد أخبرني به كعب قبل أن أليه»[43].

لا ندري ممّن نتعجّب أمن ابن الزبير الداهية، أم من علم كعب، الذي أحاط بكل شيء، فهو يعرف كم ميلاً يبلغ الطائر في طيرانه، ويتنبأ بجميع حوادث المستقبل!!

وهو يحيل، دائماً، إلى كتب الله المنزّلة، دون أن يحدّد كتاباً واحداً، معتمداً أسلوب الإبهام والتطاول بالعلم الواسع، إلى حدِّ اتّهامه بالكذب: «سمع حميد بن عبد الرحمن **معاوية** يحدّث رهطاً من قريش، وهو

[43] مختصر تاريخ دمشق، ابن عساكر، اختصره ابن منظور (المتوفى 711هـ) في 29 جزءاً، تحقيق روحية النحاس، رياض عبد الحميد مراد، محمد مطيع، دار الفكر، سورية، الطبعة الأولى، دمشق، 1402هـ/ 1984م، 186/21

بالمدينة، فذكر كعب الأحبار، فقال: إن كان لمن أصدق هؤلاء المحدّثين الذين يتحدّثون عن الكتاب، **وإن كنّا مع ذلك لنبلو عليه الكذب**».

وعن **روح بن زنباع** (ت 84ه)، قال: «شهدت كعباً جاء إلى معاوية، فقام على باب الفسطاط، فناداه: يا معاوية، يا معاوية، يا معاوية، فخرج إليه، فأخذ بيده، فانطلقا جميعاً. فقلت: لأمر ما جاء كعب يدعو معاوية! فاتّبعت أثرهما، فلما كنت قريباً منهما، حيث أسمع كلامهما، ولا أحبّ أن يرياني، سمعت كعباً يقول: يا معاوية، والذي نفسي بيده، إن في كتاب الله المنزّل: محمد أحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أبو بكر الصديق، رحمه الله، عمر الفاروق، عثمان الأمين. فالله الله يا معاوية في أمر هذه الأمّة. ثمّ ناداه الثانية: إنّ في كتاب الله المنزّل، ثمّ عاد الثالثة»[44].

عن ابن سلّام أنّه كان يقول: «إنّا لنجد صفة رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- إنا أرسلناك شاهداً، ومبشّراً، ونذيراً، وحرزاً، للأميين، أنت عبدي ورسولي سمّيته المتوكّل.

وقال عطاء بن يسار، وأخبرني الليثي أنّه سمع **كعب الأحبار** يقول مثل ما قال ابن سلاّم. قلت وهذا عن عبد الله بن سلّام أشبه.

ولكن الرواية عن عبد الله بن عمرو أكثر. وليعلم **أنّ كثيراً من السلف كانوا يطلقون التوراة على كتب أهل الكتاب، فهي عندهم أعمّ من التي أنزلها الله على موسى**. وقد ثبت شاهد ذلك من الحديث»[45].

من هذه الرواية وما شابهها ترسّخ في تراث المسلمين، وفي أذهانهم، أنّ (التوراة) بشّرت بمحمّد صلّى الله عليه وسلّم! وما بشّرت التوراة بمحمّد. وما وجد فيها: «إنّا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيراً وحرزاً للأميّين، أنت عبدي ورسولي سميته المتوكل». ولم يذكر ابن سلام، ولا كعب الأحبار، مصدر هذه الفكرة.

فإن كان يقصد التّوراة المنزّلة على موسى، فقد أخطأ هو، أو من روى عنه. وإن كان وجد ذلك في بعض نسخ التّلمود، فهو لم يستوعب الموضوع؛ إذ لا يعترف الأحبار اليهود، منذ أن وجدت اليهوديّة، بنبيّ غير موسى، لا قبله ولا بعده. وما كان لأيّ كتاب أن يوجد فيه: إنّا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيراً. ومن الخطأ، أيضاً، استعمال صيغة الحاضر للتبشير، ومن الواضح أنّه تقويل للتوراة ما لا تقل، وهو اقتباس معلوم ورد في عدّة سور من القرآن: [وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيراً] [سورة الإسراء: 105]. [يَا

[44] المرجع نفسه، 186/21

[45] البداية والنهاية، مرجع سابق، 326/2

أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً] [الأحزاب: 45]. [وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً] [الفرقان: 56]. [إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً] [الفتح: 8].

أخرج الطبراني والبيهقي في الدلائل عن محمد بن يزيد الثقفي، قال: «اصطحب قيس بن خرشة وكعب الأحبار، حتى إذا بلغا صفّين وقف كعب، ثمّ نظر ساعة، ثمّ قال: ليهراق بهذه البقعة من دماء المسلمين شيء لا يهراق ببقعة من الأرض مثله! فقال قيس: ما يدريك فإن هذا من الغيب الذي استأثر الله به؟! فقال كعب: ما من الأرض شبر إلا مكتوب في التوراة الذي أنزل الله على موسى ما يكون عليه، وما يخرج منه إلى يوم القيامة»[46].

في الرواية دليل واضح، وهدف مُتعمّد، يُراد منه تضخيم شأن التوراة، وأنّها اشتملت على علم الأوّلين والآخرين.

«عن عمار الدهني، قال: مرّ عليّ -رضي الله عنه- على كعب الأحبار، فقال: يُقتل من ولد هذا الرّجل رجل في عصابة لا يجفّ عرق خيولهم حتّى يردّوا على محمّد صلّى الله عليه وسلّم. فمرّ حسن، فقالوا: هذا يا أبا إسحاق؟ قال: لا. فمرّ حسين فقالوا: هذا؟ قال: نعم. رواه الطبراني ورجاله ثقات، إلّا أنّ عماراً لم يدرك القصة»[47].

قد يكون رجاله ثقات، ولكن قد تكون القصّة مختلقة، فعليها علامات التكلّف والوضع، ولا بدّ من أن يوجد بينهم من وضع وتعمّد الكذب؛ لأنّ الرواية رجم بغيب لا يمكن أن يطّلع عليه أحد من العباد، فضلاً عن مخالفته روح القرآن والإيمان، وإنّما اختلقت الرواية نتيجة الصراعات السياسية بعد مقتل الحسين.

وهذه رواية أخرى تنبؤية عن الخليفة الثالث عثمان بن عفّان:

«كَانَ بِنَاءُ عُثْمَانَ لِلْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ سَنَةَ ثَلَاثِينَ عَلَى الْمَشْهُورِ، وَقِيلَ فِي آخِرِ سَنَةٍ مِنْ خِلَافَتِهِ، فَفِي كِتَابِ السِّيَرِ عَنِ الْحَارِثِ بن مِسْكين، عَن بن وَهْبٍ، أَخْبَرَنِي مَالِكٌ أَنَّ كَعْبَ الْأَحْبَارِ كَانَ يَقُولُ عِنْدَ بُنْيَانِ عُثْمَانَ الْمَسْجِدَ، لَوَدِدْتُ أَنَّ هَذَا الْمَسْجِدَ لَا يُنْجَزُ فَإِنَّهُ إِذَا فَرَغَ مِنْ بُنْيَانِهِ قُتِلَ عُثْمَانُ»[48].

[46] جلال الدين السيوطي (ت 911هـ)، الدر المنثور، دار الفكر، بيروت، المجلّد الثالث، سورة المائدة، 558/3

[47] الهيثمي (ت 807)، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للحافظ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1408هـ/ 1988م، 411/19

[48] ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، مرجع سابق، 545/1

لم يقتل عثمان عندما فرغ من بنيان المسجد النبويّ، وكيفما قلّبنا الرواية وجدناها بارعة في الصّنعة والتمحّل. قد يكون كعب حادّ الذكاء استشرف الأحداث والمآلات؛ إذ بدأ التململ ضدّ عثمان سنة ثلاثين، فاستنتج أنّ الوضع لا ينبئ بخير، ولكن ما كان يستطيع أن يتنبّأ بمقتل عثمان.

وأكثر علم الغيب المرويّ عن كعب الأحبار يتعلّق بعمر بن الخطّاب:

«عن عمر بن ربيعة أنّ عمر بن الخطاب أرسل إلى كعب الأحبار، فقال: يا كعب كيف تجد نعتي؟ قال: أجد نعتك قرن من حديد، قال: وما قرن من حديد؟ قال: أمير شديد لا تأخذه في الله لومة لائم، قال: ثمّ مه؟ قال: ثم يكون من بعدك خليفة تقتله فئة ظالمة. ثمّ قال: مه؟ قال: ثمّ يكون البلاء. رواه الطبراني ورجاله ثقات»!![49].

«وَأَتَاهُ كَعْبٌ؛ أَيْ كَعْبُ الْأَحْبَارِ [عندما طُعن عُمر] فَقَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَا تَمُوتُ إِلَّا شَهِيدًا وَإِنَّكَ تَقُولُ مِنْ أَيْنَ وَإِنِّي فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ»[50].

«عن سعد الجاري، مولى عمر بن الخطاب، أنّه دعا أمّ كلثوم بنت علي بن أبي طالب، وكانت تحته، فوجدها تبكي، فقال: ما يبكيك؟ فقالت: يا أمير المؤمنين! هذا اليهودي، تعني كعب الأحبار، يقول: إنّك على باب من أبواب جهنّم! فقال عمر: ما شاء الله! والله إني لأرجو أن يكون ربّي خلقني سعيداً! ثمّ أرسل إلى كعب فدعاه، فلمّا جاءه كعب قال: يا أمير المؤمنين! لا تعجل عليّ، والذي نفسي بيده، لا ينسلخ ذو الحجّة حتى تدخل الجنّة، فقال عمر: أيّ شيء هذا، مرّة في الجنّة، ومرّة في النّار؟ فقال: يا أمير المؤمنين، والذّي نفسي بيده، إنّا لنجدك في كتاب الله على باب من أبواب جهنّم تمنع النّاس أن يقعوا فيها، فإذا متّ لم يزالوا يقتحمون فيها إلى يوم القيامة»[51].

هذا الحديث ظاهر الوضع، ففيه كثير من التبسيط والإخلال، ويجعل من عمر بن الخطاب المعروف بقوّة شخصيته، وحزمه، ضعيفاً ومستسلماً لما يقرّره كعب الحبار، كما يندرج في نسق الحملات الدعائيّة بين فئات من المسلمين في تمجيد الصحابة، والتمييز بينهم. ومثل هذه الروايات، سواء قالها كعب الأحبار أم نُسبت إليه، لها ضرر بعيد المدى، ولا نفع منها. فهي، أوّلاً، تناقض القرآن الكريم. وهي ثانياً، تناقض العقل والمنطق السليم، وهي، ثالثاً، تعطي حجّة، وإن كانت واهية، للمنجّمين والمشعوذين، الّذين نهى الإسلام عن استشارتهم وتصديقهم.

[49] الهيثمي، مجمع الزوائد، مرجع سابق، 62/9

[50] ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، مرجع سابق، 65/7

[51] المتقي الهندي، كنز العمال، مرجع سابق، حديث رقم: 35787، 571/12

لقد أشاع اليهود أنّهم يعلمون الغيب؛ ليسيطروا على عقول جُمّدت، ونفوس جمحت عن الحقّ. ومن المسلمين من نظّر للغيب، فأخرج للنّاس (علم الجفر). وإذا عرفنا كيف شرّع هذا العلم عرفنا كيف أشاع بنو إسرائيل مروياتهم وخرافاتهم.

الجفر الشيعيّ:

لغة: «الجَفْرُ: من أَولاد الشاء إِذا عَظُمَ واستكرشَ، قال أَبو عبيد: إِذا بلغ ولد المعزى أَربعة أَشهر وجَفَرَ جَنْبَاه، وفُصِلَ عن أُمّه، وأَخَذَ في الرَّعْي، فهو جَفْرٌ، والجمع أَجْفَار وجِفَار وجَفَرَةٌ، والأُنثى جَفْرَةٌ»[52].

أمّا اصطلاحاً: فقد تكفّل النصّ الآتي للكُليني ببيان حقيقته، وتاريخه، ومكانته في الفكر الشيعي:

«عن أبي بصير، قال: دخلت على أبي عبد الله -عليه السلام- فقلت له: جُعلت فداك، إنّي أسألك عن مسألة، هاهنا أحد يسمع كلامي؟ قال: فرفع أبو عبد الله -عليه السلام- ستراً بينه وبين بيت آخر، فاطّلع فيه، ثم قال: يا أبا محمد سل عمّا بدا لك. ثمّ قال: يا أبا محمّد، وإنّ عندنا الجامعة، وما يدريهم ما الجامعة؟ قال: قلت: جُعلت فداك وما الجامعة؟ قال: صحيفة طولها سبعون ذراعاً بذراع رسول الله صلى الله عليه وآله، وإملائه من فلق فيه، وخطّ علي بيمينه، فيها كلّ حلال وحرام، وكلّ شيء يحتاج الناس إليه حتى الارش في الخدش. ثمّ سكت ساعة، ثمّ قال: وإن عندنا الجفر، وما يدريهم ما الجفر؟ قال قلت: وما الجفر؟ قال: وعاء من أدم [جلد شاة أو عجل] فيه علم النبيّين، والوصيّين، وعلم العلماء الذين مضوا من بني إسرائيل. ثم سكت ساعة، ثم قال: إنّ عندنا علمُ ما كان، وعلمُ ما هو كائن إلى أن تقوم الساعة»[53].

نسب **الكُليني** (ت 329ه) هذا الحوار إلى الإمام جعفر الصّادق (80- 148ه).

وهذا غريب من وجهين على الأقلّ:

الوجه الأوّل: أنّه احتوى اعترافاً بأنّ هذا العلم هو امتداد للعلماء الذين مضوا من بني إسرائيل!!.

والوجه الثاني: أنّ هذا العلم مكتوب على جلد يسع «علم ما كان، وعلم ما هو كائن إلى أن تقوم الساعة»!! فأيّ جلد هذا؟ ولماذا لم ينتفع به لا اليهود ولا الشّيعة؟

[52] لسان العرب، مرجع سابق، 142/4

[53] الكُليني، الكافي، دار الكتب الإسلامية، مرتضى آخوندي، طهران، الطبعة الثالثة، 1388هـ، 73/2

رواية العياشي (ت 320ه):

«عن أبي حمزة، عن أبي عبد الله -عليه السلام- قال في **الجفر**: إنّ الله -تبارك وتعالى- لمّا أنزل الألواح على موسى -عليه السّلام- أنزلها عليه، وفيها تبيان كلّ شيء كان، أو هو كائن، إلى أن تقوم الساعة. فلمّا انقضت أيّام موسى أوحى الله إليه أن استودع الألواح جبلاً يُقال له زينة، فأتى موسى الجبل فانشقّ له الجبل، فجعل فيه الألواح ملفوفة، فلمّا جعلها فيه انطبق الجبل عليها، فلم تزل في الجبل حتى بعث الله نبيّه محمّداً صلّى الله عليه وآله. فأقبل ركب من اليمن يريدون الرّسول صلّى الله عليه وآله. فلمّا انتهوا إلى الجبل، انفرج الجبل، وخرجت الألواح ملفوفة كما وضعها موسى، فأخذها القوم. فلمّا وقعت في أيديهم ألقى الله في قلوبهم الرّعب أن لا ينظروا إليها وهابوها حتى يأتوا بها رسول الله صلّى الله عليه وآله. وأنزل الله جبرائيل على نبيّه، فأخبره بأمر القوم، وبالذي أصابوه، فلمّا قدموا على النبيّ -صلّى الله عليه وآله- ابتدأهم، فسألهم عما وجدوا، فقالوا: وما علمك بما وجدنا؟ قال: أخبرني به ربّي وهو الألواح، قالوا: نشهد أنّك لرسول الله. فأخرجوها، فوضعوها إليه، **فنظر إليها وقرأها، وكانت بالعبراني**، ثمّ دعا أمير المؤمنين عليه السلام، فقال: دونك هذه ففيها علم الأوّلين، وعلم الآخرين، وهي ألواح موسى، وقد أمرني ربّي أن أدفعها إليك، فقال: يا رسول الله لست أحسن قراءتها، قال: إنّ جبرائيل أمرني أن آمرك أن تضعها تحت رأسك كتابك هذه الليلة، فإنّك تصبح وقد علمت قراءتها، قال فجعلها تحت رأسه، فأصبح وقد علّمه الله كلّ شيء فيها. فأمره رسول الله -صلّى الله عليه وآله- بنسخها **فنسخها في جلد شاة، وهو الجفر، وفيه علم الأوّلين والآخرين. وهو عندنا، والألواح عندنا**، وعصا موسى عندنا!! ونحن ورثنا النبيّين صلّى الله عليهم أجمعين. قال: قال أبو جعفر عليه السلام: تلك الصخرة التي حفظت ألواح موسى تحت شجرة في وادٍ يعرف بكذا»[54].

يا لها من رواية عظيمة؟! عرّفتنا، أوّلاً، من أين تأتي الإسرائيليات، أو الجسر الذي عبرت عليه، والعجيب أنّها لم تبقِ شيئاً من العلم لبني إسرائيل، ولا لليهود؟ واستحوذت عليه كلّه في لفافة واحدة من الجلد؟! يا له من جلد!! ثمّ أرشدتنا أنّ العلم وراثة، أو لا يكون. فلماذا السّعي والبحث، واللّفافة تكفّلت بكل شيء.

إنّ أحداً من بني إسرائيل، واليهود، والنصارى، لم يجرؤ على مثل هذه التخريجات الفائقة. فقد قُلبت الأوضاع رأساً على عقب، أصبح عليّ بن أبي طالب أميّاً، والرّسول يقرأ العبريّة!! وأيّة عبرية؟ إنّها مكتوبة من عهد موسى؛ بل هي منزّلة من ربّ العزّة.

[54] تفسير العياشي (ت320ه)، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، لبنان، بيروت، الطبعة الأولى، 1411ه/1991م، 53/3

ألم يتفطّن الراوي أنّ هذا الادّعاء جاء على لسان المشركين [وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ] [النحل: 103].

بمثل هذا يُتوارَث التكديس النّقلي، وبمثل هذا يُغَيَّب العقل، وتهيمن الخرافة، وتتواصل عبر العصور، وهذا هو منبع الخطر في المراجع ذات الصّبغة الدينيّة، التي لا تُؤخذ كاجتهادات نسبية مرتبطة بالمكان والزمان، وإنما تكرِّس عقلية تملُّك اليقين، والحقّ المبين.

مختارات من الإسرائيليّات:

إنّها مجرّد مختارات وشواهد، لن نتعرّض فيها إلى التفسيرات المتعلّقة ببدء الخلق، وتفسير الظواهر الكونيّة؛ لأنّ النّاس يتساوون فيها، من حيث اعتمادهم على التأويلات والأساطير، ولكنّ المهمّ كيف وُظِّفت تلك التأويلات لاسيما حسب ثقافتهم، ومعتقداتهم، وبنياتهم الاجتماعية المختلفة. ولقد تداخلت الأساطير مع ما بقي في الذاكرة الإنسانيّة من الرسائل الكتابية، وأخبار الأنبياء، مشوّهاً ومحرّفاً، ثمّ تفاعلت مع مواريث الشعوب، ولغاتها، ونقولها، وترجماتها. وليس لشعب، في هذا المجال، أسطورة متفرّدة متميّزة في مضمونها إلا بما أضفاه عليها من خصوصيّاته العرقيّة، والبيئية، والثقافيّة.

من الإسرائيليّات المسيحيّة:

(1) – نسطور وبحيرا الراهب:

تناقلت مصادرنا قصّة الراهب **بحيرا**، ولقاءَه المفاجئ مع الرسول، وهو طفل. وهذه القصّة ترتبط، أيضاً، بشخصيّة **نسطور** الراهب؛ إذ نهض كلا الراهبَيْن بدور التّعرّف على الطفل، أو الشّابّ، محمّد بن عبد الله بن عبد المطّلب، والتبشير به، والتحذير على حياته. هذا يستوجب وضع بعض الحقائق التاريخيّة في مكانها.

رواية القلقشندي (ت 821ه):

«الفرقة الثالثة النسطورية: ومقتضى كلام ابن العميد أنّهم أتباع **نسطوريوس** (380-451م) (Nestorius) بطريرك القسطنطينية. ويُحكى عنه أنّ من مذهبه أنّ مريم -عليها السلام- لم تلد إلهاً، وإنّما ولدت إنساناً، وإنّما اتّحد في المشيئة لا في الذات، وأنّه ليس إلهاً حقيقةً؛ بل الموهبة والكرامة. ويقولون بجوهرين وأقنومين. وإنّ **كرلس** (Cyrille d'Alexandrie) بطريرك الإسكندرية، وبطريرك رومية، خالفاه في ذلك، فجمعا له مئتي أسقف بمدينة أفسس، وأبطلوا مقالة نسطوريوس، وصرّحوا بكفره، فنُفي إلى إخميم من

صعيد مصر، ومات فيها، فظهر مذهبه في نصارى المشرق من الجزيرة الفراتية، والموصل، والعراق، وفارس»[55].

كان **القلقشندي** دقيقاً حقّاً في حديثه عن **نسطور**، الّذي عاش في زمن الإمبراطور البيزنطي ثيودوز الثاني (Théodose II). ونسطوروس هو مؤسّس المذهب النسطوريّ وكنيسته. فإذا كان هذا هو نسطور الرّاهب، الّذي تشير إليه مصادرنا في قصّته مع **ميسرة غلام خديجة**، فإنّ الأمر لا يستقيم؛ إذ إنّ الراهب نسطور توفّي قبل ميلاد الرسول بأكثر من مئة وعشرين سنة.

رواية ابن حجر العسقلاني (ت 852ه):

«نسطور الراهب: ذكر ابن سعد عن الواقدي أنّ خديجة لمّا فاوضت النبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- قبل البعثة، وقبل أن يتزوّجها، في تجارة إلى الشام، أرسلت معه غلامها ميسرة، فذكر ميسرة أنّهما قدما بصرى، فنزلا تحت ظلّ شجرة، فقال له **نسطور** الراهب: **ما نزل تحت هذه الشجرة قطّ إلا نبيّ**. ثمّ وقع بين النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وبين رجل آخر ملاحاة، فقال له: احلف باللّات والعزّى. فقال: ما حلفت بهما قطّ، وإنّي لأمرّ بهما معرضاً عنهما. فقال الرجل لميسرة هذا نبيّ هذه الأمّة»[56].

والدّليل الثّاني على أنّ هذه الرواية مختلقة هي قول **نسطور**: «ما نزل تحت هذه الشجرة قطّ الا نبيّ». فأيّاً كان نسطور هذا، فما كان له، ولا لغيره، أن يقترف هذا الخطأ في القول، فالشجرة على طريق سيّارة يستظلّ تحتها كلّ النّاس. ولا علاقة للأنبياء بها. أمّا إذا كان نسطور، الّذي التقى به ميسرة هو راهب آخر، فهو أغرب من الأوّل.

وقد أخطأ الكاتب المصري **محمّد رضا** (ت 1950)، عندما تعرّض إلى الحديث عن مذهب نسطور، حيث قال: «ومذهب نسطور قائم على التوحيد، وينكر ألوهية المسيح، فمن ذلك قوله: لا تقولوا مريم أمّ الله؛ لأنّها من البشر، ويستحيل أن يُولد الإله من البشر. وقد ذكرت أنّ بحيرا الراهب، الذي أكرم النبيّ -عليه الصّلاة والسّلام- عندما رحل إلى الشّام، وعرفه بعلامات فيه، كان متّبعاً هذا المذهب، ونسطور هذا كان رجلاً جليل

[55] القلقشندي (ت 821هـ)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)، 283/13

[56] ابن حجر العسقلاني (ت 852هـ)، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1415هـ، ترجمة رقم 8912، تحت عنوان: نسطور الراهب، 397/6

القدر متبحّراً في الدّيانة، والذي يدلّ على مكانته الرفيعة في الدين المسيحي أنّه كان بطريرك القسطنطينية من عام (428م) إلى (431م)، وكان له أتباع كثيرون من القساوسة، لكنّه اضطُهد لعقيدته ونُفي»[57].

صحيح أنّ نسطوريوس أنكر أن يُقال لمريم (أمّ الإله)، كما يدّعيه المسيحيّون، ولكنّ نسطور لم ينكر ألوهيّة عيسى! فمذهبه ليس (قائماً على التوحيد)، وإنّما على (الثنائيّة). وقد أصاب **القلقشندي** في هذا: «من مذهبه أنّ مريم عليها السلام لم تلد إلهاً، وإنّما ولدت إنساناً، وإنّما اتّحد في المشيئة لا في الذات، وأنّه ليس إلهاً حقيقةً؛ بل الموهبة والكرامة. ويقولون بجوهرين وأقنومين».

فقصّة ميسرة مع نسطور، أيّاً كان نسطور، تخالف حقائق التاريخ، وتناقض المنطق السليم. بقيت قصّة بحيرا الراهب.

أمّا شخصيّة **بحيرا الراهب**، فمختلف فيها في مصادرنا:

رأي ابن حجر:

«في بعض السير عن الزّهري أنّه كان من يهود تيماء، وفي مروج الذهب للمسعودي أنّه كان نصرانياً من عبد القيس يُقال له جرجيس»[58].

رأي ابن كثير:

«قصة بحيرا: حَكَى السُّهَيْلِيُّ عَنْ سِيَرِ الزُّهْرِيِّ، أَنَّ بَحِيرَى كان حبراً من أحبار يهود. قُلْتُ: وَالَّذِي يَظْهَرُ مِنْ سِيَاقِ الْقِصَّةِ أَنَّهُ كَانَ رَاهِباً نَصْرَانِيّاً، وَاللَّهُ أَعْلَمُ»[59].

محور القصّة هو سفر الرسول في طفولته. وحول هذا السفر شكوك:

الأوّل: أكان مع جدّه أم مع عمّه:

«عَنْ أَبِي مِجْلَزٍ أَنَّ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ، أَوْ أَبَا طَالِبٍ، شَكَّ خَالِدٌ، قَالَ لَمَّا مَاتَ عَبْدُ اللَّهِ عَطَفَ عَلَى مُحَمَّدٍ، فَكَانَ لَا يُسَافِرُ سَفَراً إِلَّا كَانَ مَعَهُ فِيهِ، وَإِنَّهُ تَوَجَّهَ نَحْوَ الشَّامِ، فَنَزَلَ مَنْزِلاً فَأَتَاهُ فِيهِ رَاهِبٌ. فَقَالَ إِنَّ فِيكُمْ رَجُلاً صَالِحاً:

---

[57] محمّد صلّى الله عليه وسلم، دار الكتب العلمية، الطبعة الخامسة، القاهرة، 2002م، ص 437. ومحمد رضا أديب مصري، شغل منصب أمين مكتبة الجامعة في القاهرة، وكان أحد المدرسين في مدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية. توفي في القاهرة سنة 1369هـ=1950م. له سلسلة كتب عن الرسول والخلفاء الأربعة.

[58] ابن حجر، الإصابة، (475/1) ترجمة رقم: 796، تحت اسم: بحيرا الراهب، مرجع سابق.

[59] أبو الفداء إسماعيل ابن كثير (ت 774هـ)، البداية والنهاية، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى 1408هـ، 1988م (349/2)

ثُمَّ قَالَ أَيْنَ أَبُو هَذَا الْغُلَامِ؟ قَالَ فَقَالَ هَا أَنَا ذَا وَلِيُّهُ، أَوْ قِيلَ هَذَا وَلِيُّهُ، قَالَ احْتَفِظْ بِهَذَا الْغُلَامِ، وَلَا تَذْهَبْ بِهِ إِلَى الشَّام، إِنَّ الْيَهُودَ حسَّد، وَإِنِّي أَخْشَاهُمْ عَلَيْهِ. قَالَ: مَا أَنْتَ تَقُولُ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَقُولُهُ. فَرَدَّهُ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أستودعك محمّد! ثمّ إنّه مات»[60].

الثاني، عمر الرّسول:

كان محمّد بن عبد الله إذ ذاك طفلاً، فأغلب مصادرنا تقول إنّه كان ابن تسع سنين، وبعضها يقول اثنتي عشرة سنة.

والثالث، سبب السفر:

يستبعد أن يكون الأطفال في تلك السنّ يرافقون آباءهم في رحلتي الشتاء والصيف، نظراً للمشقّة، وأخطار الطريق، فضلاً عن تعطيل سير القافلة وفاعليتها. والسبب المذكور في مراجعنا سبب هزيل:

«فَصْلٌ فِي خُرُوجِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَعَ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ إِلَى الشَّامِ، وَقِصَّتِهِ مَعَ بَحِيرَى الرَّاهِبِ. قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: ثُمَّ إِنَّ أَبَا طَالِبٍ خَرَجَ فِي رَكْبٍ تَاجِراً إِلَى الشَّامِ. فَلَمَّا تَهَيَّأَ لِلرَّحِيلِ، وَأَجْمَعَ السَّيْرَ، صَبَّ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِيمَا يَزْعُمُونَ. فَرَقَّ لَهُ أَبُو طَالِبٍ وَقَالَ: وَاللَّهُ لَأَخْرُجَنَّ بِهِ مَعِي وَلَا أُفَارِقُهُ وَلَا يُفَارِقُنِي أَبَدًا. أَوْ كَمَا قَالَ، فَخَرَجَ بِهِ، فَلَمَّا نَزَلَ الرَّكْبُ بُصْرَى مِنْ أَرْضِ الشَّام، وَبِهَا رَاهِبٌ يُقَالُ لَهُ بَحِيرَى فِي صَوْمَعَةٍ لَهُ»[61].

الرّابع، مضمون القصّة:

الواقع أنّها مضامين كثيرة متضاربة فيما بينها. وأهمّ ما فيها أمور ثلاثة: الغمامة، والتبشير، والتحذير.

أ)- الغمامة:

«فرأى بحيرا محمّداً -صلّى الله عليه وسلّم- والغمامة تظلّه»، «فرأى الغمامة تظلّه من بينهم»[62].

---

[60] البداية والنهاية، (349/2)، مرجع سابق.

[61] البداية والنهاية، (345/2)، مرجع سابق.

[62] البداية والنهاية، 345/2، مرجع سابق. أمّا العبارة في سيرة ابن هشام: «فِي الرَّكْبِ حِينَ أَقْبَلُوا، وَغَمَامَةٌ تظلّه مِنْ بين القوم».

يبدو أنّ **ابن كثير** لم يكن مصدّقاً للرواية كلّها، لكثرة ما يستعمل عبارة يزعم ويزعمون، مثل قوله: «يزعمون أنّه رأى رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- في الركب حتّى أقبل وغمامة تظلّله من بين القوم». وقد أصاب في شأن الغمامة، فأمرها عجيب وغريب من نواحٍ عدّة:

أوّلاً: لماذا لم تظهر هذه الغمامة إلا أثناء هذا السفر، ونحن نعلم شدّة القيظ في مكّة؟

ثانياً: كيف لغمامة أنّ تظلّل شخصاً واحداً وسط جمع، إلاّ أن تكون (إكليلاً) فوق الرأس مباشرة، مثل الإكليل الّذي نراه فوق رأس عيسى عليه السّلام في تصاوير المسيحيّين. ومن المرجّح جدّاً أنّ هذه الغمامة استُعمِلَت ترجمة لذلك الإكليل، ورمزاً مماثلاً.

ثالثاً: كيف لم ينتبه أحد من القافلة، حتّى أبو طالب نفسه، لهذه الغمامة المرافقة.

رابعاً: كيف تسنّى لبحيرا وحده أن يُلاحظها من دون الجميع، وأن يخبر بها القافلة:

«ثمّ رجع [بحيرا] فصنع لهم طعاماً. فلمّا أتاهم به، وكان هو في رعيه الإبل، فقال أرسلوا إليه. فأقبل وغمامة تظلّه. فلمّا دنا من القوم قال: انظروا إليه عليه غمامة. فلمّا دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء الشجرة. فلمّا جلس مال فيء الشجرة عليه، قال انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه»![63].

هل كان بحيرا يتمتّع بحدّة بصر، أو دقّة ملاحظة مفقودة عند القرشيّين؟ في السياق نفسه: «انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه»، «وتهصرت أغصان الشجرة على رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- حتّى استظلّ تحتها». **ما الدّاعي إلى هذا؟**

«قال ابن أبي الدنيا: حدّثني سلمة بن شبيب، عن إدريس قال: سمعت وهباً يقول: كان في بني اسرائيل رجلان بلغت بهما عبادتهما أنّهما مشيا على الماء، فبينما هما يمشيان على البحر إذا هما برجل يمشي في الهواء».

«كان الرجل من بني إسرائيل إذا بلغ المبلغ الصالح من العمل، فمشى في النّاس تظلّله غمامة. قال: فمرّ رجل قد أظلّته غمامة على رجل، فأعظمه لما رآه ممّا آتاه الله، فاحتقره صاحب الغمامة، فأمرها الله أن تتحوّل عن رأسه إلى رأس الذي احتقره، وهو الذي عظم أمر الله عزّ وجلّ»[64].

[63] البداية والنهاية، مرجع سابق، 347/2

[64] البداية والنهاية، مرجع سابق، 284/9.

هو تراث من بني إسرائيل إذاً، ولا بدّ من أن يكون للقوم مثله.

ب)- التبشير:

لم يكن بحيرا يعرف محمّد بن عبد الله حسب الروايات، ولم يكن سمع به من قبل:

«وتخلّف رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- من بين القوم لحداثة سنّه في رحال القوم تحت الشجرة». «فتخلّف محمّد لصغره في رحالهم فأمرهم [بحيرا] أن يدعوه»[65].

وشرع بحيرا في البحث والتقصّي عن علامات النبوّة؛ لأنّه: «لم يرَ الصفة التي يعرف، ويجدها عنده» كما ذكر ابن كثير. والغمامة أيضاً؟ والشّجرة الّتي ما نزل تحتها قطّ إلا نبيّ؟ «فجعل بحيرا يلحظه لحظاً شديداً، وينظر إلى أشياء من جسده **كان يجدها عنده من صفته**»[66].

أيّة أشياء من جسده يمكن أن يلاحظها بحيرا، وغفل عنها أهل الرسول جميعاً، وأصحابه، وأقاربه، وقريش كلّها؟: «فلمّا فرغ أقبل على عمّه أبي طالب، فقال: ما هذا الغلام منك؟ قال ابني. قال بحيرا ما هو بابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيّاً؟ فقال إنّه ابن أخي. قال فما فعل أبوه؟ قال مات وأمّه حبلى به. قال: صدقت»![67].

من أين لبحيرا أن يعلم ذلك، ولم يخبر به أيّ كتاب؟

إنّ الإنجيل هو الكتاب الوحيد المبشّر بأحمد، ولولا القرآن الكريم ما كان للمسلمين، وللناس أجمعين، أن يعلموا أنّ الإنجيل المنزّل على عيسى قد بشّر بمحمّد رسولاً:

[وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ] [الصفّ: 6].

ليس في القرآن أكثر من هذا. وليس على الأرض أصدق كلاماً من كلام الله عزّ وجلّ. لم يكن النّصارى الأُول الّذين سمعوا هذا التبشير من عيسى مباشرة ليعرفوا أكثر من اسم الرسول المُنتظَر. ونحن نعلم أنّ كثيراً

[65] ابن حجر، الإصابة، مرجع سابق، 475/1
[66] البداية والنهاية، مرجع سابق، 346/2
[67] البداية والنهاية، مرجع سابق، 346/2

من الحواريّين ضربوا الصفح عن الإنجيل، ووضعوا أناجيل شخصيّة أغلب ما فيها مرويّات، وأخبار متنوّعة، أسهم في كتابتها عشرات الأشخاص؛ لذلك لا يوجد في تلك الأناجيل أيّ تبشير بأحمد.

هذا لم يمنع أنّ التبشير برسول بعد عيسى قد شاع، وتناقله أحبار اليهود والنصارى، وأغلبهم أرادوه من بني إسرائيل. وربّما حافظت أقليّة منهم على البشارة الأصليّة. ومهما يكن من أمر، كان يستحيل عليهم جميعاً أن يعلموا أنّ الرسول المنتظر سوف يكون من قريش، وأنّه سوف يُولد يتيم الأب، ثمّ تتوفّى أمّه، فيكفله جدّه ثمّ عمّه. فهذه الجزئيّات من تاريخ العرب وحدهم، ولم تكن لتُعرف لولا الرسالة.

إلا إذا كان علم بحيرا، وعلم سيف بن ذي يزن قبله، ينبع من (علم الجفر). ولكن اللفافة الجلدية المقدّسة ظلت مخفية في الجبل منذ موسى، ولم تظهر إلا أيام علي بن أبي طالب.

وأمر بعض المسلمين غريب حقاً مع قرآنهم، ومع رسولهم! فمنذ القديم ذهبوا يبحثون عن البشارة بمحمّد في الكتاب المقدّس بعهديه القديم والجديد.

انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج1، لابن حزم.

ولا ندري أهم في شكّ أم هم يبحثون عن حجّة للقرآن. والقرآن هو الحجّة الوحيدة على المسلمين، وعلى الناس أجمعين، وعلى كلّ الكتب. ثمّ إنّنا لا ندري ما جدوى تلك البحوث، ومن يُراد إقناعه بأنّ التوراة والإنجيل قد أعلنا عن قدوم أحمد. فإن كانوا أهل الكتاب، فلا حاجة لهم بذلك، وإن كانوا المسلمين فالأمر أدهى وأمرّ.

وبعد أن تصفّحنا تاريخ ابن كثير في مسألة الغمامة، نعرض ما أورده كاتب معاصر، هو محمّد رضا، في كتابه (محمّد صلّى الله عليه وسلّم)، وهو، في جوهره، تكرار لجهود ابن حزم في المسألة، إلا أنّنا اتّخذناه أنموذجاً نفهم من خلاله كيف يُعالج الفكر الإسلامي القضايا والمباحث الدينية.

جاء في كتاب **محمّد رضا** أنّ البشارة وردت في التوراة، والإنجيل، والزبور، وهذا فيه نظر. أمّا التوراة، فما كان لها أن تبشّر بمحمّد لسببين على الأقلّ:

أوّلاً: يكون التبشير بالرسول الّذي يلي موسى مباشرة، وهو في هذه الحال داوود.

ثانياً: لا معنى لتبشير بني إسرائيل، في عهد موسى، برسول لن يكون منهم، وسوف يظهر في غيرهم بعد أكثر من ألف سنة.

وأمّا الزبور فقد بشّر بعيسى، وما نظنّ أنّه بشّر بأحمد، والله أعلم. ولا يوجد أيّ أثر للزبور، فلا ندري من أين أخذه محمّد رضا.

وقد صرّح القرآن الكريم بالبشارة بأحمد في الإنجيل، بينما لم يشر لفظيّاً، أو ضمنيّاً، إلى ورود البشارة بمحمّد في الزبور والتوراة. أمّا قوله تعالى: [مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً] [الفتح: 29]، فليس دليلاً على أنّ التوراة بشّرت بني إسرائيل برسول اسمه محمّد. وإنّما هو مَثَلٌ ضربه الله -عزّ وجلّ- للّذين يؤمنون برسولهم، ويجاهدون في سبيل الله، ويحافظون على صلواتهم، ويتراحمون بينهم، منذ أن بعث الله الرسل إلى خاتمهم محمّد صلّى الله عليهم وسلّم.

ويسوق محمد رضا النصّ الآتي دليلاً على البشارة:

«جاء في وصيّة موسى الكليم -عليه السلام- كما (في صفحة 33 فقرة 2): من التثنية ولفظه: جاء الربّ من سيناء وأشرق من ساعير، واستعلن من فاران، ومعه ألوف الأطهار، في يمينه سنة من نار. أحبّ الشعوب، جميع الأطهار بيده، والذين يقتربون من رجليه يقبلون من تعليمه. هذه الوصية هي آخر وصايا موسى عليه السلام. وقد أخبر بعيسى ومحمّد عليهما الصلاة والسلام، ووضّح لهم أن الله جاء من سيناء (يريد بمجيئه ظهور دينه وتوحيده بما أوحى إلى موسى بسيناء)، وأوصاكم بوساطتي باتّباع التوراة، ويستشرق عليكم بوساطة عيسى من ساعير، وهي جبال فلسطين، فلم يبق إلا أن يستعلن من جبال فاران (والمراد بها مكّة، وهي البلدة التي سكنها إسماعيل)»[68].

في سفر التثنية من الكتاب المقدّس المتداول، نجد النصّ بصيغة مختلفة نسبياً:

[فَقَالَ: أَقْبَلَ الرَّبُّ مِنْ سِينَاءَ، وَأَشْرَفَ عَلَيْهِمْ مِنْ سَعِيرَ، وَتَأَلَّقَ فِي جَبَلِ فَارَانَ؛ جَاءَ مُحَاطاً بِعَشَرَاتِ الأُلُوفِ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ وَعَنْ يَمِينِهِ يُوْمِضُ بَرْقٌ عَلَيْهِمْ. 3 حَقّاً إِنَّكَ أَنْتَ الَّذِي أَحْبَبْتَ الشَّعْبَ؛ وَجَمِيعُ الْقِدِّيسِينَ فِي

[68] محمّد رضا، محمد صلى الله عليه وسلم، مرجع سابق، ص 55

يَدِكَ، سَاجِدُونَ عِنْدَ قَدَمَيْكَ يَتَلَقَّوْنَ مِنْكَ أَقْوَالَكَ، 4 الَّتِي تَشْتَمِلُ عَلَيْهَا الشَّرِيعَةُ الَّتِي أَوْصَانَا بِهَا مُوسَى، لِتَكُونَ مِيرَاثاً لِجَمَاعَةِ يَعْقُوبَ. 5 صَارَ الرَّبُّ مَلِكاً لِشَعْبِهِ حِينَ اجْتَمَعَ رُؤَسَاءُ أَسْبَاطِ إِسْرَائِيلَ مَعاً][69].

وفي نسخة أخرى:

[جاء الرَّبُّ مِنْ سِينَاءَ، وَأَشْرَق لهم مِنْ سَعِيرَ، وَتلألأ من جَبَلِ فَارَانَ وأتى من ربوات القدس وعن يمينه نار شريعةٍ لَهُمْ. 2 فأحبّ الشعبَ جَمِيعُ قِدِّيسِيه فِي يَدِكَ، وهم جالسون عِنْدَ قَدَمِكَ يَتَقبّلون مِنْ أَقْوَالِكَ. 4 بِناموسٍ أَوْصَانَا مُوسَى مِيرَاثاً لِجَمَاعَةِ يَعْقُوبَ. 5 وكان في يَشورونَ مَلِكاً حِينَ اجْتَمَعَ رُؤَسَاءُ الشعبِ أَسْبَاطِ إِسْرَائِيلَ مَعاً]. (التثنية: 33).

لا نعجب لاختلاف النصوص؛ إذ هي ترجمات عن الإغريقيّة القديمة[70]. المهمّ أنّ ذلك المقطع النصّيّ جزء من بركة موسى لبني إسرائيل حسب كتّاب **(سفر التثنية)**. وليس فيه، في نظرنا، إلا تجسيم (للربّ) الّذي يعبده اليهود الربيّون، وهو (يهوه). ولا نرى فيه أيّ علاقة بعيسى، ولا بمحمّد، ولا بأيّ تبشير بهما.

واستغلال لفظة (فاران) (Paran) على أنّ (المراد بها مكّة، وهي البلدة التي سكنها إسماعيل)، واعتماد ذلك لاستنتاج أنّ موسى بشّر بمحمّد، هو من باب التأويل البعيد، والتعسّف على النصّ.

ثمّ يورد محمد رضا دليلاً آخر على البشارة، فيقول:

«جاء في الفصل (18) من الكتاب الخامس من سفر التثنية أن الله –تعالى- قال لموسى عليه السلام: [قل لبني إسرائيل إني أقيم لهم آخر الزمان نبياً مثلك من بني إخوتهم]، وكلّ نبيّ بعث بعد موسى كان من بني إسرائيل، وآخرهم عيسى عليه السلام. فلم يبق أن يكون من بني إخوتهم إلا نبيّنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم؛ لأنه من ولد إسماعيل، وإسماعيل أخو إسحاق، وإسحاق جدّ بني إسرائيل، فهذه هي الأخوة التي ذكرت في التوراة، ولو كانت هذه البشارة بنبيّ من أنبياء بني إسرائيل لم يكن لذكر أخواتهم معنى»[71].

---

[69] التثنية: 33، وانظر: التوراة والإنجيل، ترجمة د. دلال عبد العزيز.

[70] النصّ بالفرنسيّة:

(Voici la bénédiction par laquelle Moïse, homme de Dieu, bénit les enfants d'Israël, avant sa mort. 2 Il dit: L'Éternel est venu du Sinaï, Il s'est levé sur eux de Séir, Il a resplendi de la montagne de Paran, Et il est sorti du milieu des saintes myriades: Il leur a de sa droite envoyé le feu de la loi. 3 Oui, il aime les peuples; Tous ses saints sont dans ta main. Ils se sont tenus à tes pieds, Ils ont reçu tes paroles. 4 Moïse nous a donné la loi, Héritage de l'assemblée de Jacob. 5 il était roi en Israël, Quand s'assemblaient les chefs du peuple Et les tribus d'Israël) (Deutérénome 33.)

[71] محمّد رضا، مرجع سابق، ص 55

نرجع الى النصّ الأصلي لنرى إن كان الاستشهاد في محلّه:

[الوعد بنبيّ بعد موسى: سَيُقِيمُ الرَّبُّ فِيكُمْ نَبِيّاً مِثْلِي مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، لَهُ تَسْمَعُونَ، لِهَذَا أُقِيمُ لَهُمْ نَبِيّاً مِنْ بَيْنِ إِخْوَتِهِمْ مِثْلَكَ، وَأَضَعُ كَلاَمِي فِي فَمِهِ، فَيُخَاطِبُهُمْ بِكُلِّ مَا آمُرُهُ بِهِ] (التثنية: 18).

[يُقِيمُ لك الرَّبُّ إلهك نَبِيّاً مِنْ وسَطِكَ من إخوتك مِثْلِي، لَهُ تَسْمَعُونَ. حسبَ كلِّ ما طلبت من الربّ إلهك فِي حُورِيبَ يَوْمَ الاجْتِمَاعِ قائلاً لاَ أعُودُ أسْمَعُ صَوْتَ الرَّبِّ إِلَهِي، وَلاَ أرَى النَّارَ الْعَظِيمَةَ أَيْضاً لِئَلاَّ أمُوتَ قَالَ لِيَ الرَّبُّ: أُقِيمُ لَهُمْ نَبِيّاً مِنْ وسطِ إِخْوَتِهِمْ مِثْلَكَ].

أيّ علاقة لهذا المقطع بنبيّ الإسلام؟ إنّه يبشّر بداود، وليس كما ذهب إليه ابن حزم، ونقله عنه محمّد رضا وغيره؛ بل هو يخالف السير التاريخيّ لتسلسل أنبياء الله ورسله. وما كان هذا المقطع ليبشّر بعيسى؛ لأنّه فعلاً ليس من (إخوة بني إسرائيل)، ولا هو من سلالة يعقوب، فما بالك بمحمّد.

هذا أكثر ما يعتمده الباحثون للاحتجاج بأنّ موسى بشّر بمحمّد، وكلّها افتراضات وتأويلات بعيدة جدّاً، وتعسّف على النّصّ، لاسيما أنّ الكلام، الذي يستشهدون به، ليس من كلام موسى إلا افتراضاً. وينطبق ذلك، أيضاً، على ما يعتمدونه من العهد الجديد. معلوم أنّ عيسى بشّر بأحمد، كما أخبر القرآن. ومعلوم، كذلك، أنّ بعضاً من الإنجيل قد اندثر، وبعضه الآخر قد حُرِّف، فلماذا يضيع الوقت في البحث بين أقاويل الحواريّين، من أمثال يوحنّا، ولوقا، ومتّى، بحثاً عن دليل على تبشير عيسى بأحمد؟ ولماذا يضيع الجهد في البحث عن (المُعين) أو (المُعزّي)، ولاسيما (الفارقليط) أو (البارقليط) وعمّن يكون؟

ج)- التحذير

قال بحيرا، بعد أن تأكّد من أمر الطّفل محمّد: «ارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه اليهود، فوالله لئن رأوه، وعرفوا منه ما عرفت، ليبغنه شرّاً، فإنّه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم»! «وهو ينشدهم ألا يذهبوا به إلى الرّوم، فإنّ الرّوم إن رأوه عرفوه بالصّفة قتلوه»![72].

يظهر أنّه وُضعت قصّتان لبحيرا. فمن اعتبره نصرانيّاً جعله يحذّر من اليهود، ومن اعتبره يهوديّاً جعله يحذّر من الرّوم؛ أي من البيزنطيّين المسيحيّين؛ بل وصل الأمر إلى أن أنقذ بحيرا الطفل محمّداً من براثن نفر من أهل الكتاب: «فزعموا فيما روى الناس أنّ زريراً، وثماماً، ودريسماً، وهم نفرٌ من أهل الكتاب، قد كانوا

[72] الإصابة، 475/1

رأوا رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- مثلما رأى بحيرى في ذلك السفر الذي كان فيه مع عمّه أبي طالب، فأرادوه، فردّهم عنه بحيرى»[73].

كذلك تتضارب الروايات حول ما فعل أبو طالب:

فالرأي الأول يقول: إنّه قطع سفره، وعاد إلى مكّة، ولم يتاجر: «قال الراهب أنشدكم الله أيّكم وليّه؟ قالوا أبو طالب. فلم يزل يناشده حتى ردّه»، «ونزلوا بالراهب بحيرى فقال لأبي طالب بالسّر ما قال، وأمره أن يحتفظ به، فردّه معه أبو طالب إلى مكّة».

الرأي الثاني: واصل سفره إلى الشّام: «ورجع به أبو طالب إلى بلده بعد فراغه من تجارته بالشام»[74].

لقد تعرّض ابن كثير إلى نقد سند الروايات، الّتي ذكرت بحيرا الراهب، ومتونها، وبيّن ما فيها من تضارب وغرائب. وهو -وإن لم يحدّد منهجاً يسير عليه، ويتبع خطواته إلى نهاية كتابه- خضع لترتيبات المؤرّخين القدامى، مثل ابن إسحاق، وابن هشام، والسهيلي، والطبري، وابن الأثير، واتّبع طريقة ابن الجوزي، ومن يمثّل مدرسته، مثل سبط ابن الجوزي، وغيرهما، عبر تفصيل التراجم والتوسع فيها، وتطويلها، والعناية بذكر الأخبار العلمية والثقافية، مع اهتمام بالغ بالظواهر الخارقة، والغرائب النادرة.

وقد كان يشعر، في مواقع عديدة، بأنّ ما يرويه من خرافات المؤرّخين لا تستقيم عقلاً ونقلاً. لكنّه يذكرها تقليداً للمؤرّخين السابقين، ردّاً وتنبيهاً، قائلاً: «لَوْلَا أَنَّهَا مُسَطَّرَةٌ فِي كَثِيرٍ مِنْ كُتُبِ التَّفَاسِيرِ، وَغَيْرِهَا مِنَ التَّوَارِيخِ، وَأَيَّامِ النَّاسِ، لَمَا تَعَرَّضْنَا لِحِكَايَتِهَا، لِسَقَاطَتِهَا، وَرَكَاكَتِهَا، ثُمَّ إِنَّهَا مُخَالِفَةٌ لِلْمَعْقُولِ وَالْمَنْقُولِ»[75].

[73] البداية والنهاية، 346/2

[74] البداية والنهاية، 348/2

[75] البداية والنهاية، 129/1

المصادر والمراجع:

1- ابن العماد الحنبلي (ت 1089هـ)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، 1406هـ/1986م.

2- ابن حجر (ت 852هـ)، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1415هـ.

3- ابن حجر، تقريب التهذيب، تحقيق محمد عوامة، دار الرشيد، سورية، الطبعة الأولى، 1986م.

4- ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت، 1379ه.

5- ابن كثير (ت 774هـ)، البداية والنهاية، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، 1408هـ/ 1988م.

6- ابن منظور (ت 711هـ)، لسان العرب، دار صادر، الطبعة الثالثة، بيروت، 1414هـ.

7- ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، تحقيق روحية النحاس، دار الفكر، الطبعة الأولى، دمشق، 1402هـ/ 1984م.

8- التلمود البابلي، المؤسسة الأردنية للبحوث والمعلومات، عمّان، الطبعة الأولى، 2011م.

9- الجندي الكندي، السّلوك في طبقات العلماء والملوك، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط2، 1416هـ/1995م.

10- الذهبي (ت 748هـ)، سير أعلام النبلاء، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، 1427هـ/2006م.

11- القلقشندي (ت 821هـ)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت).

12- الكُليني، الكافي، دار الكتب الإسلامية، مرتضى آخوندي، طهران، الطبعة الثالثة، 1388هـ.

13- المباركفوري (ت 1353ه)، تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، دار الكتب العلمية، بيروت/ لبنان، (د.ت).

14- المتقي الهندي (ت 975هـ)، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، تحقيق بكري حياني، صفوة السقا، مؤسسة الرسالة، الطبعة الخامسة، 1401هـ/1981م.

15- الهيثمي (ت 807)، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للحافظ، دار الكتب العلمية، بيروت/لبنان، 1408ه/ 1988م.

16- تفسير العياشي (ت 320ه)، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، لبنان، بيروت، الطبعة الأولى، 1411ه/1991م.

17- جلال الدين السيوطي (ت 911هـ)، الدر المنثور، دار الفكر، بيروت، 1993م.

18- صحيح البخاري، تحقيق مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، الطبعة الثالثة، 1407ه/ 1987م.

19- عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، دار الشروق، مصر، 1999م.

20 - محمد الطاهر بن عاشور (ت 1393هـ)، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984ه.

21 - محمد رضا، محمّد صلّى الله عليه وسلم، دار الكتب العلمية، الطبعة الخامسة، القاهرة، 2002م.

22- القاضي حسين بن محمد المهدي، صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال، راجعه عبد الحميد محمد المهدي، منشورات وزارة الثقافة اليمنية، 2009م.

MominounWithoutBorders

@ Mominoun_sm

Mominoun

الرباط – المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هاتف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com